الأب سهيل قاشا

المسيحيون المشرقيون
بين
التجذر والهجرة

المسيحيون المشرقيون

بين

التجذر والهجرة

الأب سهيل قاشا

LAU
19 DEC 2018
Riyad Nassar Library
RECEIVED
GIFT 28968

إسم الكتاب: المسيحيون المشرقيون
بين
التجذر والهجرة

إسم المؤلف: الأب سهيل قاشا

الطبعة الأولى: جميع حقوق الطبع محفوظة 2012

الناشر: دار ابعاد

العنوان: لبنان - بيروت - شارع الحمرا - بناية رسامني - الطابق 7

هاتف: 751541 - 1 - 961+ / 341622 - 71 - 961 +

Email: abaadpress@gmail.com

Website: www.abaadpress.com

التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع

العنوان: بيروت - شارع الحمرا - بناية رسامني - طابق سفلي أول

ص.ب: 6432-113 بيروت - لبنان

هاتف: 750054 - 1 - 961 +

فاكس: 750053 - 1 - 961 +

Email: info@alfurat.com

مقدمة

الوجود المسيحي في العالم العربي
ازمة معنى ودور

في الآونة الأخيرة تعددت الأصوات والمنابر التي تعلن عن اهتمامها بالوجود المسيحي في العالم العربي. كُتب الكثير عن آفاق هذا الوجود ونشرت إحصاءات عن تزايد الهجرة المسيحية من الشرق وبرزت مخاوف من اضمحلال الحضور المسيحي. تأسست جمعيات ومراكز أبحاث تعنى بهذه المسألة. خصص الفاتيكان سينودوس عن الوجود المسيحي في الشرق الأوسط. وعقدت محاضرات وندوات وخلوات لدرس هذه القضية، وبرز حراك سياسي لمعالجة هذه المعضلة، وتعددت وجهات النظر التحليلية لمقاربة الأسباب والآفاق. فهل المسيحية فعلاً في خطر يواجهها في مهدها؟ وهل يستطيع المسيحيون الشرقيون إعطاء معنى ودور ورسالة لوجودهم في شرق طابعه الغالب عروبي أو إسلامي؟

تحدٍ كبير وأسئلة كثيرة تبحث عن أجوبة واستجابة لها، وخصوصاً بعدما بات الوجود المسيحي في العالم العربي جزءاً أساسياً من أزمة العروبة والعولمة والتحديات الأممية والوطنية.

التحدي الأول والأساسي الذي يواجه الوجود المسيحي في العالم العربي هو تداعيات مقولة صراع الحضارات كنظرية أحادية لفهم تاريخ البشرية وتفسيره. وتختصر

هذه المدرسة الصراع في منطقتنا بأنه بين الحضارة الإسلامية من جهة والحضارة المسيحية – اليهودية من جهة أخرى. وتشجع الصهيونية والمسيحيون الجدد في الولايات المتحدة هذه النظرية، وتختبىء في ظلها إسرائيل للإستقواء بالغرب المسيحي عموماً، بغية تحريض المسيحيين على الإسلام.

ولغرض ضبط إيقاع هذه النظرية وإظهار صوابيتها، تعمل القوى المؤيدة لها على إلغاء المسيحيين الشرقيين من العالم العربي والإسلامي. لذلك نشهد حيث يوجد إحتلال إسرائيلي وأميركي عمليات تهجير للمسيحيين، من خلال التضييق عليهم وتشجيع سفرهم إلى دول أوروبية وأميركية. وهذا ما يحصل في فلسطين والعراق خصوصاً وفي سورية ولبنان ومصر عموماً، لأن المسيحية الشرقية هي شاهد فعلي على التعددية والتعايش والحياة المشتركة في المشرق العربي. انطلاقاً من ذلك، بات الوجود المسيحي في النطاق الانطاكي النقيض الوجودي لنظرية صراع الحضارات التي هي مظهر من مظاهر الصراع بين الأديان.

اما التحدي الثاني فهو تنامي الحركات التكفيرية الإسلامية، التي تسعى إلى إلغاء الآخر المسيحي والإسلامي الذي لا يشاركها الرأي والتفسير، وتعمل على طرده من دار الإسلام، بالإرهاب والقتل.

تنطلق هذه الحركات من دمج الإستعمار الغربي بالعقيدة المسيحية، وتكفر كل من لا يوافقها النظرة، إن كان مسيحياً أم مسلماً. هذا التحدي لا يواجه المسيحيين الشرقيين فقط بل هو تحدٍ مصيري للإسلام المعتدل أو الليبرالي، كما هو تحدٍ للعروبة نفسها التي تواجه مأزقاً بين مدارسها، حيث يربط بعضها بالإسلام. بينما مدارسٌ أخرى تحاول التمييز بين العروبة والإسلام، وتطرح مفهوماً جديداً للعروبة الحضارية التي تعتبر المسيحية والإسلام جزءاً من حضارتها، وتعمل على قيام دولة عربية مدنية ديموقراطية.

ويتمثّل التحدي الثالث في انزلاق بعض الفئات المسيحية الشرقية إلى منطق انعزالي يرتكز على وهم قيام دولة أو كانتون للمسيحيين، كمخرج وحيد لحمايتهم من البحر الإسلامي، مما يؤدي إلى تحالف بين هذه الجماعات والمخططات الغربية عموماً،

وهي الرامية إلى تفكيك المنطقة ضمن مشروع أميركي – صهيوني للشرق الأوسط الجديد، قائم على أساس دويلات طائفية، الغرض منها استغلال خوف المسيحيين من جهة وتبرير قيام إسرائيل كدولة يهودية من جهة أخرى، مما يحفظ أمنها على حساب الآخرين. ادى هذا المنطق إلى إنقسام المسيحيين فيما بينهم والى تشرذمهم، وتفتيت وجودهم وتعرضهم الى حملة من المضايقات، وصولاً إلى إحباطهم وتسهيل هجرتهم لأسباب إقتصادية أو لظروف التمييز والقهر.

تطرح هذه التحديات الأساسية، وغيرها من التحديات الثانوية، على الوجود المسيحي في العالم العربي سؤالاً أساسياً: ما هي الإستجابة؟

بداية، لا بد من قراءة تاريخية نقدية لفهم وتجاوز مسألتين أساسيتين:

– الأولى عقدة حروب الفرنج التي سميت غربياً بالحروب الصليبية. وهي في الواقع حملات أوروبية لخدمة المصالح القومية الأجنبية، اتخذت من الدين غطاء ومبرراً. واضطهدت فعلياً وعملياً المسيحية الشرقية، وحاولت إلغاء خصوصيتها وهويتها من أجل المسكونية. وهي اسم آخر للغربنة، علماً أن المسيحية أساساً هي بنت الشرق. من هنا أصلها وجذورها، وهنا يتحدد مصيرها وجوهرها.

– الثانية عقدة حلف الأقليات، وهي نشأت مع المسألة الشرقية التي اخترعها الإستعمار الأوروبي، من أجل تبرير التدخل في شؤون الرجل المريض أي السلطنة العثمانية وتفكيكها، وربط معاناة الأقليات بمصالحها القومية. ورثت إسرائيل هذا النهج وعملت على قيام حلف الأقليات من خلال إتصالاها بالقيادات فيها، وإيهامها بجدوى هذا الحلف. وسرعان ما تبين أن إسرائيل تسعى إلى المصالحة، وعقد إتفاقيات مع الأكثرية على حساب الأقليات التي استعملتها كورقة ضغط لتحقيق مآربها، عبر التغرير بمشاعرها. ولعل مصير جيش لبنان الجنوبي الذي يعرف بجيش لحد هو النموذج الابرز على ذلك، إذ عبّر عنه انطوان لحد عند اندحار جيشه من جنوب لبنان في ايار عام 2000 بقوله: «خدمنا إسرائيل 25 عاماً فتخلت عنا خلال 25 ساعة».

سؤال آخر: ما هو خيار المسيحيين الشرقيين؟

في العودة إلى التاريخ، يتبين لنا أنه عندما اختارت نخبة مسيحية أن تكون رائدة في النهضة والحداثة حجزت موقعاً متقدماً، وكان لها حضوراً حضارياً مميزاً وعندما اختارت الحل العسكري تحولت الى ميليشيات ألغت بعضها بعضاً، فكانت نكبة على المسيحيين وعلى المجتمع ككل.

ملاحظة: لا يمكن الكلام عن وجود مسيحي في العالم العربي بالجملة من دون درس الظروف الخاصة للمسيحيين في كل دولة عربية.

أ- في لبنان، لم يحسن الحكّام الموارنة استعمال الإمتيازات المسيحية، لبناء دولة ديموقراطية عادلة وقوية، فتحوّل الحكم الى الفشل، وانتقاصاً من صلاحيات رئاسة الجمهورية وتعثر بناء الدولة.

ب- في فلسطين، ألغى الإحتلال الإسرائيلي الوجود المسيحي الذي كان له دور طليعي في الثورة الفلسطينية.

ت- في العراق كان للمسيحيين حضور متميز مع النظام البعثي السابق، وهم يواجهون راهناً مصيراً صعباً في ظل الإحتلال الأميركي.

ث- في سورية الحضور المسيحي يشارك في السلطة، ولو في شكل نسبي، نتيجة وجود نظام يسعى الى ان يكون علمانياً.

ج- في مصر أزمة طائفية متفاقمة بعد سقوط الناصرية وتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل.

ح- اما في الدول العربية الأخرى، فيتباين وضع المسيحيين وفق طبيعة الأنظمة وفاعلية الحركات التكفيرية.

في الخلاصة، على المسيحيين أن يتمسكوا بهويتهم الأنطاكية المشرقية وأن يكونوا شهوداً للحق، كما عبّر مؤخراً مسيحيو فلسطين في وثيقة «وقفة حق»، تعبيراً عن لاهوت التحرر والمقاومة ضد الظلم والإستبداد الإسرائيلي.

لقد سبق ودعا السينودوس من أجل لبنان، المسيحيين إلى التضامن مع القضايا العربية المحقة، لأنهم جزء أساسي من حضارة العالم العربي ومصيره. لكن الترجمة العملية

لهذه الدعوة ما زالت متعثرة. وعلى المسيحيين التمسك بهويتهم المشرقية، وإلتزام بناء دولة المواطنة والعدالة والمساواة والديموقراطية، لانها الضامن الوحيد لوجودهم.

وبهذا المعنى، للمسيحية المشرقية دور ورسالة مسكونية، شرط ان يعي المسيحيون تاريخهم وجوهر وجودهم في هذا المشرق، لانهم الأقرب إلى المسيح وهم حملة رسالة المحبة والتسامح والخلاص. وهم الأقدر على تقديم نموذج الحياة المشتركة لخلاص البشرية من التصادم والتناقض والحروب والدمار، بعدما أخفقت الحضارة الغربية في إعطاء قيمة للإنسان وللقيم الروحية.

المسيحيون الشرقيون مدعوون إلى تقديم نموذج جديد للحضارة الإنسانية، خصوصاً بعدما نشأت الحضارة الغربية التي تدعي المسيحية وقضت على البعد الروحي للانسان.

هم مدعوون الى ان يكونوا رُسل حضارة كونية جديدة قائمة على مرتكزيْن:

- التعددية الاجتماعية، أي الإعتراف بحق الإختلاف ضمن الإئتلاف والتضامن، من أجل القضاء على الفقر والظلم والجهل والإستبداد. لذلك هم شهود على هذه التعددية المتميزة حيث يتم الإلتقاء بين المسيحية والإسلام.
- انسنة الحضارة عبر المزاوجة بين البعدين المادي والروحاني. فللانسان مصالح وحاجات مادية يجب توفيرها في شكل طبيعي وسليم من دون استغلال أو حرمان أو إفراط. وللانسان أيضاً بعد روحاني ذو تطلعات عقلانية جمالية نفسية ومثل عليا وقيم ومناقب، من دونها لا قيمة لاي حضارة أو ثقافة.

فهل نستجيب لهذه التحديات، ونكون على مستوى الرسالة والدور الذي دعانا إليه المسيح، ونحن الأقرب منه وإليه؟

سؤال يحاول الاجابة عليه الأب سهيل قاشا في هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه مجموعة من المحاضرات والدراسات التي سبق وطرحها في حوارات ولقاءات حول واقع المسيحيين الشرقيين وجدلية تجذرهم في الارض والتراث والتاريخ من جهة وتحديات هجرتهم واقتلاعهم من اماكن تواجدهم من جهة اخرى.

يختصر الاب سهيل قاشا في كتابه هذا بعدين متكاملين، الاول هو خلاصة ابحاثة عن تاريخ المشرق وهي عديدة ومتنوعة وتواكب مختلف الحقبات والمراحل بدءاً من الجذور العريقة في القدم وصولاً الى المسيحية والاسلام ولا سيما الحضور المسيحي في الوسط الاسلامي والعربي، والثاني هو خلاصة تجاربه ومعاناته كانسان ولد في العراق وتنقل في ارجاء المشرق واستقر في لبنان وعايش معاناة الناس كرجل دين ومؤرخ يعي الصعوبات والتحديات والاخطار السياسية والاجتماعية والثقافية التي تهدد المشرق والمسيحيين خصوصاً.

جمع الأب سهيل قاشا بين حضور الذاكرة وتجذرها بالانتماء الوطني والالتزام برسالة ومعنى ودور الوجود المسيحي في المشرق، ديار منشأها، والمكان الذي تشهد فيه للحق والمحبة من جهة، وبين تحديات الخارج والداخل التي تهدد الوجود المسيحي في مهده وتخطط لاقتلاعهم بالهجرة والتهجير والتغريب والالغاء من جهة أخرى.

بين الحضور والغياب يكتب الأب سهيل قاشا عن مسيرة المسيحيين المشرقيين مع هويتهم والمستقبل الذي ينتظرهم والاخطار التي تهدد وجودهم، ويتناول ايضاً علاقة المسيحيين بالاسلام ومساهمتهم في بناء الحضارة الاسلامية.

سركيس أبو زيد

تمهيد

من منطلق الشعار الذي رفعناه في مؤتمر «مسيحيي المشرق اعمدة الحضارة العربية» نؤكد عليه ونعمل سوية على إعادته والنهوض به لإحياء امجاد الامة العربية في ميدان العلم والمعرفة من جديد ونبرهن اننا ابناء أمة واحدة أرضاً وشعباً وتراثاً. ندافع عن مبادئها، ونقاوم كل الاعتداءات عليها، وايقاف نهر الهجرة سيما المسيحيين لأننا ابناء الطليعة في الحضارة الانسانية، فجذورنا عميقة وعريقة في هذا الوطن المقدس الذي أقمنا عليه أولى الحضارات، بدءاً بالسومريين، ومروراً بالأكديين والبابليين والاشوريين والكلدان، وانتهاء بالفينيقين والكنعانيين والسريان، الذين حين ظهر السيد المسيح استقبلوا بشرى الانجيل وانتموا الى كنيسته، واستشهدوا في سبيل تعاليمه بأرجاء المسكونة شرقاً وغرباً، ونشروا العلم والمعرفة من: فلسفة ولاهوت وأدباً وعلوماً، قائدين العالم الى النور، قابضين على زمام المثل العليا والاخلاق الكريمة.

وعندما اعلن الرسول ايمانه بالله الواحد الاحد، وخرج بالاسلام الى عالم الوجود، ارسل اليه الجاثليق ايشوعياب الثاني المعروف بالجدّالي طالباً النجدة لتحرير العراق من ربقة الفرس الوثنيين بوفد على رأسه جبرائيل مطران البصرة الذي قصد مدينة يثرب، الا ان الرسول كان قد انتقل الى جوار ربه، فاستقبله ابو بكر الصديق الذي طمأن قلبه، وكانت الطليعة بارسال اول جيش من المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني المسيحي الذي فتح بوابة العراق امام المسلمين المحررين الذين مدّ المسيحيون يد التعاون في انتشار الاسلام من خلال تحرير ارض الوطن الكبير: العراق والشام، «وتعاونوا على البرّ والتقوى، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وكونوا عباد الله إخواناً».

وقف المسيحيون والمسلمون جنباً الى جنب في معركة القادسية التي اشترك فيها القبائل العربية المسيحية كالتغالبة والشيبانيين والايادين والمعزيين والعباديين من عرب الحيرة، حتى ان الذي قتل أحد القادة الفرس فتى تغلبي الذي راح يهتف: «انا الفتى التغلبي، انا قتلت المرزبان». والتي على اثرها تحرر العراق الذي كان يسكنه عشرة ملايين مسيحي من السريان اليعاقبة والنساطرة.

وتمّ تحرير القدس عندما إستقبل اسقفها صفرونيوس الخليفة عمر بن الخطاب الذي اطلق عليه السريان لقب «الفاروق» ويعني «المخلص او المنقذ او المنجد».

وكذلك حصل مع الحواضر الاخرى اذ فتح رؤسائها الروحانيون ابوابها امام جيش المسلمين، فالمغريان ماروثا فتح ابواب تكريت، والاسقف مار آمة فتح أبواب الموصل، والمطران مار ايليا فتح ابواب دمشق.

وعليه فتح الخلفاء المسلمون امام المسيحيين كل الابواب للعمل في جميع الميادين الحضارية بكل حرية، فنبغوا وابدعوا اولاً في النقل والترجمة، الرياضيات والحساب والهندسة، الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، الطب والكحالة والصيدلة، وانطلقوا الى علوم الاولين التي كانت اساس كل المعارف، فأنشأوا مئات المدارس والكليات، وفتحوا عشرات المارستانات والمكتبات وعلى رأسها بيت الحكمة، في بغداد الذي ترأسه العديد من المسيحيين الامناء على رسالتهم الانسانية.

الامويون ابقوا ما كانت عليه بلاد الشام قبل الفتح والتحرير فحافظ المسيحيون على وظائفهم ومناصبهم في الدولة سيما الاطباء ومنهم شمعون طيبوته، القس أهرون ويوحنا بن سرابيون، ابو الحكم وابن آثار وتياذوق والحاجب سرجون وابنه منصور ولدى تعريب الدواوين من بعده عبد الملك بقي المسيحيون قادة لحركة النقل والتعريب وفي مقدمتهم سرجيس الراسعيني وماسرجويه البصري والراهب اسطيفان.

اما العباسيون فقد انتعشت الحركة العلمية والترجمة وقد توجوها بانشاء بيت الحكمة في بغداد التي ضمت آلاف المجلدات بالميادين العلمية والادبية كافة وترأسها العديد من

المسيحيين الاطباء والمترجمين اضافة الى العشرات من الذين عملوا بها من اصحاب العلم والمعرفة امثال حنين بن اسحق وآل بختيشوع الذين خدم افرادها ثلاثة قرون.

لو تصفحنا كتب التراجم والسير القديمة التي وضعها المسلمون أمثال ابن ابي احيبعة وابن جلجل وابن القفطي والبيهقي وابن النديم وابو الفرج الاصفهاني، لوجدنا وقرأنا اخبار المئات ان لم نقل الالاف من الاطباء والكحالين والصيادلة والفلكيين والرياضيين والفلاسفة والمترجمين والمهندسين والمعماريين والمناطقة المسيحيين الذين خدموا الحضارة العربية الاسلامية بالصدق والاخلاص والامانة والمخطوطات التي تملأ خزائن الشرق والغرب اليوم تشهد بمآثرهم العقلية والتي كرّسوا كل جهودهم من اجل ازدهارها، وكتب التاريخ القديمة والحاضرة تشهد على ذلك شهادات حقة، والذين نندهش بمواقفهم وجهودهم في سبيل خدمة الدولة الاسلامية.

وان ننسى، فلا ننسى الشعراء المسيحيون قبل الاسلام وفي مقدمتهم امرؤ القيس وعمرو بن كلثوم وامية بن ابي الصلت وعدي بن زيد وعبد المسيح بن بُقيلة، وأيام الامويين شمعلة التغلبي ومرقس الطائي والاخطل التغلبي والقطاني، وفي عهد العباسيين أبو قابوس واسحق بن حنين وابو تمام وغيرهم كثيرون.

كل ذلك المجد والازدهار سقط وانحط بسقوط بغداد بيد المغول عام 1258، فأفل نجم الحضارة واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر، حينما ظهر في عالم الكفاح والتحرير وبرز الى ميدان الدفاع عن الامة والوطن، وكان المسيحيون في الطليعة ايضاً اذ رفعوا لواء المطالبة بالحقوق والحرية، وقدموا خدماتهم من جديد لأبناء جلدتهم المسلمين في الحرب على الفقر والجهل والمرض.

وكان أول سلاح استخدموه «الصحافة» التي انشأوها في اقطار الدولة العثمانية والبلاد الاوروبية، ومن خلالها عملوا على بث الروح القومية العربية وافكار التحرر والاستقلال، فلمع نجمهم في آفاق الوطن وفي مقدمتهم: سليم حسّون ولويس صابونجي وخليل غانم واديب اسحق وعبد الله مرّاش ونعمان الخوري وجبرائيل دلال ويوسف باخوس وميخائيل عورا وحبيب سلموني وانستاس الكرملي وغيرهم كثيرون حيث بلغ

مجموع صحفهم خمس واربعون صحيفة في لندن وباريس ونابولي وبيروت ودمشق وبغداد وغيرها من الحواضر.

فبرز الوطنيون من اجل الحرية والحفاظ على آداب اللغة العربية ومنهم: لويس معلوف صاحب المنجد والمعلم بطرس البستاني ابراهيم الذي قادهم وصرخ يوماً صرخته الشهيرة وما زال صداها الى اليوم يتردّد:

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ
الله اكبر ما هذا المناح فقد
شكاكم المهد واشتاقتكم التربُ
بالله يا قومنا هبّوا لشأنكم
فكم تناديكم الاشعار والخطبُ
الستم من سطوا في الارض واقتحموا
شرقاً وغرباً، وعزّوا اينما ذهبوا

وعليه، كان المسيحيون في طليعة الذين حافظوا على اللغة العربية وآدابها، وطوّروها بعد ان انحطت ايام العثمانيين وصارت ركيكة وفقيرة في الاسلوب والتعريب بعد سياسة التتريك، فهذا انستاس الكرملي الراهب الذي كرّس حياته للغة القرآن، والى جانبه الاب لويس معلوف صاحب المنجد في اللغة العربية وبطرس البستاني وابناء نسبه، والمطران اقليميس يوسف داود الموصلي الذي الف ونشر الكتب النحوية والاعرابية للغة العربية الى جانبها في الحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ.

وهناك سليم حسون صاحب كتاب الاجوبة الشافية في النحو والصرف، وغيرهم كثيرون اذا ما اضفنا اليهم أدباء العصر وشعرائه من العرب المسيحيين الذين لا حصر لهم في مقدمتهم: ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وايليا ابو ماضي وامين قصير ويوسف الصائغ والخوري انطون زبوني والخوري حنا رحماني...

ومن اطلق مصطلح القومية العربية هو نجيب عازوري، وخليل غانم اول من اطلق

مصطلح الوطن العربي الى جانب عشرات الشهداء في سبيل الامة العربية والوطن العربي وهكذا يصح القول في من انشأ الاحزاب القومية والاستقلالية ونشر افكار الحرية امثال بولس سلامة، وميشال عفلق ويوسف فهد وغيرهم كثيرون...

بقي ان نقول، ان جامعتنا الفتية التي نبتت في ارض لبنان العزيز بكادرها العراقي بالهمّة والغيرة العربية التي تأمل ان تسمو وتزدهر امام الاجيال القادمة، تأتي أكلها جنية بهمتكم ومعاضدتكم لها بكل ما يتيسر من مجالات العلم والمعرفة والتشجيع لتحقيق الشعار الاصيل، ويتحقق بذلك ما نصبوا اليه:

«الارزة والنخلة توأم»

الأب سهيل قاشا

الباب الأول

المسيحيون المشرقيون إلى أين؟

أنطلق من العنوان ذات السؤال الكبير:

إلى أين؟ من هم المسيحيون المشرقيون؟ متى نشأوا وأين؟ لماذا بدأوا يهاجرون؟ أين يرحلون؟ ماذا يعملون؟ كيف يعيشون؟ ما مستقبلهم؟ هل سيعودون؟

وهل ستبقى الأواصر والمآصر مربوطة بين الوطن الأم والوطن المجهول؟ ما هي النتائج وما هي الحلول؟

عشرة أسئلة محورية، يتمحور حولها الموضوع:

أولاً: من هم المسيحيون المشرقيون؟

المسيحيون المشرقيون هم أبناء ما نسميه بـ «الهلال الخصيب» أبناء الرافدين وبلاد الشام والاردن ولبنان وفلسطين، وكتعبير أعم مدنياً ومواطنياً، وكمسيحيين هم أبناء الكنيسة النسطورية شرقاً في العراق وايران، وأبناء الكنيسة الارثوذكسية . في بلاد الشام والأردن وفلسطين، والموارنة في لبنان، فكيف جرى ذلك؟، وهذا ما يقودنا إلى جواب السؤال الثاني، متى نشأوا وأين؟

سكان هذه البلدان أبناء الأمة من سلالات الاكديين والبابليين والأراميين والأشوريين والكلدان والكنعانيين ثم العرب، تمكنوا، بأبنائهم وأحفادهم، إلى نشوء شعب واحد سُميّ بالشعب السرياني بعد إعتناقهم المسيحية، وهؤلاء السريان إنقسموا بحسب المذهب الكنسي إلى قسمين كبيرين هما: السريان الشرقيون أي الساكنين شرق نهر الفرات، والسريان الغربيون أي الساكنين غرب نهر الفرات. وحينما دخلت الكثلكة إلى المنطقة في القرن السادس عشر، تغيّرت التسميات، فسُمي بعضهم بالسريان الكاثوليك المتحدرين من أصول السريان الارثوذكس والذي كانوا يسمّون تاريخياً آنذاك بـ «اليعاقبة»، وسُمي الآخرون بالكلدان القادمين من أصول نسطورية. وكذلك سمُّوا باسم الكنيسة – الأشورية المشرقية الجاثليقية، ومركزهم أو رئاستهم الكنسية المتمثل بالجاثليق في طيفسون (المدائن) والكنيسة السريانية اليعقوبية ورئاستها الكنسية في تكريت والمتمثل بالمفريان والتابع للكرسي الانطاكي الى هذا اليوم. ثم الكنيسة المارونية في لبنان.

ثانياً: إنتشار المسيحية

دخلت المسيحية منطقة ما يسمى «بلاد المشرق»، التي تمتد من ايران شرقاً الى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، ومن بلاد الأناضول شمالاً إلى سواحل الخليج العربي جنوباً، نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني. واعتنقها الآراميون السريان كعقيدة دونها الموت، فنالوا من الاضطهادات أصنافها وأشدها من العذابات كالحرق بالنار، والصلب على الأعواد، وافتراس الوحوش والسلب والنهب والتغريب والطرد من قرية إلى أخرى في سبيل الايمان بالمسيح وتعاليمه، فيكفي أن نذكر أن الملك سابور الكبير الذي إضطهد المسيحيون أربعون عاماً ما بين (339 – 379م) قتل خلالها أكثر من 180 ألف مسيحي وسُمّي بالإضطهاد الأربعيني، إضافة إلى الاضطهادات الأخرى في غرب الكنيسة المشرقية من حملات شعواء على ذوي المذهب المخالف، فشنّ الملوك البيزنطيون

إضطهادات رهيبة على مخالفيهم من الأرثوذكس بتحريض من الخلقيدونيين، فنالوا منهم ما دفعهم الى الهجرة من مناطقهم إلى مناطق أخرى ونتج عنها أيضاً صعوبات وعراقيل، أدت إلى التمزق والإنقسام، ما زالت تنخر جسم الكنيسة وتضعف المسيحية بهذه البلاد وبالتالي أدت إلى الانحطاط والتخلي عن المقومات التي نشأت عليها المسيحية الأولى، فلم نعد نملك منها إلا ما نَدَر، مما أتاح لنا أن نقول وعن جدارة بان المسيحيون المشرقيون أصبحوا لغزاً إن لم نقل أسطورة كما كانت نشأتهم الأولى في بلاد المشرق (أرض الرافدين وبلاد الشام) كيف أن أجدادهم مثار التساؤلات الأولى وكيف آمنوا بالإنجيل ولماذا تمسكوا به إلى حدّ الموت يرددون ما قاله الذي بشّرهم من يفصلني عن محبة المسيح: أضرر أم جوع أم عريّ أم سيف أم قتل، لا الأمور الحاضرة ولا المستقبلية تجعلني أخون المسيح، لا القوّات ولا الملائكة تجعلني أبتعد عن الحياة الحقيقة التي وعدني بها الرب يسوع.

بهذه القيم كان الأجداد والآباء لمدة أربعة أو خمسة قرون من عمر الكنيسة التي نشأت على هذه الأرض المباركة، ونشرها هؤلاء المسيحيون المشرقيون ووصلوا بها إلى الهند والصين شرقاً، وإلى أوروبا بأطرافها الواسعة غرباً. فمن المشرق المسيحي إنطلقت المسيحية ونشأت الكنيسة الواحدة، الجامعة، المقدسة والرسولية.

إلا أن عدو الخير المتمثل بالشيطان واليهود راح يزرع الشك في صفوف المؤمنين، فاخترق الجسم النقي المقدس، وراح يقسمه شيعاً ومذاهب تتباين وتترادف، تتناقض وتتوارد، تختلف وتلتقي إلى أن وصل إلى جعل الكنيسة كنيستين شرقية وغربية وزرع بينهما كل الأحقاد والتعصب الأعمى الذي أصاب أتباعهما بعماء الإيمان، فراح كل يكفّر الآخر بأصولية غير معهودة في شرقنا الحبيب. وبالتالي وقع كل منهما تحت رحمة الآخر بما تمثله السلطة المدنية التي كانت تساند السلطة الروحية، مما جعل أبناء الكنيستين يفتشون عن المنقذ من هذه النار الإضطهادية، كسرى الفرس (الشرقيين) وقيصر روما (الغربيين). وأقصى النساطرة الشرقيين، واليعاقبة الغربيين من نار الخلقيدونيين المتمثلين في قسوة كسرى وشِدّة قيصر.

ثالثاً: الهجرة

وهنا يظهر أمامنا السؤال الثالث: لماذا بدأ المسيحيون المشرقيون بالهجرة من بلادهم الأصيلة وهم أبناءها الأصليون، هم أحفاد الآكديين والبابليين والأشوريين والكلدان والسريان مع الكنعانيين الموارنة وحتى العرب من ذرية الأراميين أجداد الحضارة الأولى حيث فجروها في أرض الرافدين وبين النهرين فكان منهم الحرف والتشريع والديانة المتمثلة بإيل وإينانا وعشتار ونبو في بابل وآشور وماري وبيروت وأوغاريت.

هؤلاء الراسخون في الإيمان، والمتجذرون بالأرض، حينما داهمهم الفتح الإسلامي أوائل القرن السابع الميلادي، استقبله المسيحيون المشرقيون بالترحاب والتهليل واعتبروه المخلص لهم من الفرس والبيزنطيين، حتى أن السريان أطلقوا على عمر بن الخطاب الخليفة لقب «الفاروق» أي المنقذ «باروقا» السريانية.

يذكر لنا التاريخ السعودي أن الجاثليق يشوعياب جداليا، أي الجدالي (647+م) أنفذ هدايا إلى الرسول محمد وفي جملتها ألف أستار فضة مع جبرائيل أسقف ميشان، وكان فاضلاً وعالماً، وكاتبه وسأله الإحسان إلى المسيحيين، وأتى في كتاب «أخبار بطاركة كرسي المشرق»: «وبرّه صاحب الشريعة (محمد) كان فيه عدة الإبل وثياب عدنية».

وقال أنه مثل بين يدي عمر بن الخطاب وكلّمه عن شؤون المسيحيين فكتب له ولطائفته عهداً وذماً. وسطر المؤرخ توما المرجي (850+م) في كتابه «الرؤساء» أن الجاثليق الجدالي بعث رسالة إلى أحد الأساقفة الفرس يقول فيها: «العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة المسيحية ويودون القساوس والرهبان، ويكرمون أولياء الله، ويحسنون إلى الكنائس والاديرة».

المفريان ماروثا (639+م) فتح لجيوش المسلمين قلعة تكريت فنجا أهلها من كل أذى ونائبة.

ومار آمه الدرزوني (650+م) قد حمل الميرة والارزاق إلى جنود المسلمين يوم

نزولهم إلى الموصل وساعدهم على فتح المدينة. وقال المؤرخ ماري بن سليمان ما نصه: «وكتب له الخليفة علي بن أبي طالب كتاباً بالوصاية عليه وبالنصارى ورعاية ذمتهم، وكان يظهره ككل من يتولى من رؤساء الجيوش وأمرائهم فيمتثلونه».

كما يذكر التاريخ أنه عندما أرسل الخليفة أبو بكر الصديق (632 – 634) خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فزحف إلى الحيرة وفتحها صلحاً ورحب به المسيحيون وانزلوا جنوده في كنائسهم واديرتهم. وفي عهد عمر بن الخطاب (634 – 644م) تولى القيادة العامة سعد ابن أبي وقاص فخيّم في القادسية، ثم اشتعلت نار الحرب بينه وبين القائد الفارسي رستم، فهبت التغالبة البصارى وبني اياد ومضر وغيرهم مع بني شيبان المسيحيين لنجدته وحاربوا إلى جانب المسلمين وكان النصر الى جانبهم حتى أن أحد فتيانهم قتل مرزبان الفرس وراح ينشد: أنا الفتى التغلبي، أنا قتلت المزربان. وفتحوا عاصمتهم المدائن، وهكذا انقرضت الدولة الساسانية.

وهكذا جرى يوم فتح دمشق، أن الأسقف إيليا تعاهد مع خالد بن الوليد لفتحها وهكذا تمّ.

كان المسيحيون الساعد الأيمن للمسلمين في فتح أو تحرير الوطن العربي بسكانه المسيحيين الذين نستطيع القول وبكل ثقة أن لهم السبب الأول في فتح البلاد ونشر الإسلام فعاش الجميع في مؤاخاة ووئام وسلام فترة غير قصيرة من الزمن امتدت إلى القرن التاسع الميلادي.

إلا أن استلام السلطة في الدولة الإسلامية عناصر غير عربية كالسلاجقة والبويهيين ثم المغول والتتار وأخيراً العثمانيين لم يرع المسلمون ودّ المسيحيين وأخوّتهم، فراح عدو الخير كعادته يجنّد أتباعه في قلب ظهر المجن، وشرعت جماعات وأفراداً تشن حملات الحقد والاضطهاد بينهما خصوصاً أيام العثمانيين الذين حكموا أربعة قرون فسنّوا الكثير من القوانين والتشريعات التعسفية التي حملت الكثير من المسيحيين المشرقيين إلى الهجرة والرحيل بعيداً، وهنا انفتح وريد النزف المسيحي في جسم الكنيسة وما زال إلى يومنا هذا خصوصاً من قانون الملل والنحل والأصولية المقيتة أيام المذابح التي شنت في اعوام: 1850 و1860 و1893

و1897 و1905 و1915 و1923 ذهب خلالها الآلاف من القتلى بلغت أكثر من مليوني شهيداً مع الملايين من المهاجرين إلى الغرب (أوروبا والأميركيتين).

فإذن كان الاضطهاد الخفي هو السبب الثاني في الهجرة والاغتراب، وللأسف ما زال هذا النزف حياً يجري في المشرق.

في القرن التاسع عشر نشأت الصهيونية العالمية التي راحت تقارع المسيحية والمسيحيين المشرقيين بحملات إضطهادية خفية وعلنية، وما زالوا يتعرضون للاضطهاد والإبادة في المشرق العربي (العراق) وكأن اليهود يثأرون من المسيحيين المشرقيين إذ هم ما زالوا يؤمنون بعقيدة راسخة بأن اليهود هم الذين صلبوا السيد المسيح عن سبق إصرار، في حين ان المسيحيون الغربيون لم يعد يهمهم صلب المسيح بل الأدهى راحوا يتقولون بأن السلطة الرومانية هي المسؤولة عن صلب المسيح وقتله، في حين أن الإنجيل يذكر أن القاضي بيلاطس البنطي قد تبرأً من صلبه حينما غسل يديه أمام الجمع الحاشد قائلاً: «أنا بريء من دم هذا الصدّيق، والجمع نفسه بذات الوقت يصرخ وينادي اصلبه اصلبه دمه علينا وعلى أولادنا».

نعم، إن عُقدة العُقد عند اليهود هي مجيء المسيح - الذين لا يؤمنون بأنه قد جاء إلى اليوم، إضافة إلى تعاليم الإنجيل الذي عرّاهم وكشف عيوبهم إلى الملأ. إضافة إلى عقدة بابل التي تلاحقهم جيلاً بعد جيل، فيلاحقون سكان العراق مسيحييه ومسلميه، فانصب حقدهم الأسود كله على العراق وسكانه ثأراً من هذه العُقدة التي تذكرهم بالسبي البابلي والقضاء على دولة يهوذا في اورشليم أيام الملك العراقي نبوخذنصر الكلداني عام 587 قبل الميلاد.

إلى جانب ذلك فإن الصهيونية المتمثلة بكيان إسرائيل لا تكتفي باضطهاد سكان العراق، إنما على اسم العراق وآثاره وهو المنبع والمخزن للآثار القديمة قدم البشرية خصوصاً حينما نشرت هذه الآثار الكتابية وفضحت مقولات التوراة وكشفت الكثيرة من المقتبسات إن لم نقل السرقات التي ملأت منها كتاب التوراة من القصص كقصة الخلقة، وقصة الطوفان، وقصة آدم وحواء وقائين وهابيل، والحكم والامثال العراقية القديمة التي

دخلت إلى التوراة بسفر الأمثال والحكمة مع سفر المزامير ونشيد الأناشيد الذي هو قصيدة الزواج المقدس في بابل. فالأولى أن تكون التوراة هذه مع التوراة البابلية وليس اليهودية العبرانية.

بقي أن نقول أن الصهيونية العالمية قبل غزو العراق من قبل أميركا وتوابعها عقدت اجتماعات عدة في نيويورك درست فيها أماكن الآثار في العراق والتي نال معظمها القصف الجوي، وإلى سرقة أهم التماثيل واللوحات المكتوبة وكسرها عوض أن تحتفظ بها لتدمير سُبُل الحضارة ودلائلها.

أكيد أن الصهيونية العالمية تواجه صعوبة في تغيير المفاهيم المسيحية المشرقية في بلادنا، والمسيحيون المشرقيون ما زالوا راسخين في إيمانهم، وقيمهم، ومثلهم، لاهوتهم يرفع الإنسان نحو العلاء ليتحد بالله، وليس كالغربيين الذين فقدوا كل القِيم والمثل المسيحية خصوصاً في تبرئة اليهود من دم المسيح، ولاهوتهم يُنَزّل الله على الأرض ليختلط بالبشر.

وكون المسيحيين المشرقيين يرون أن الصهاينة مجرمون لذا عمل الصهاينة على تجنيد مجموعات محمومة لمحاربة المسيحيين واستغلال الإعلام باصطناع أحداث تجعلهم يخافون، فيتركون أرضهم ويهاجرون، هذا فضلاً عن المجازر التي ترتكب بحقهم منذ القديم وحتى اليوم، والمشهد واضح في العراق -كما حدث بالأمس في لبنان - حيث لم يقم الاميركيون المحتلون بأي جهد أو مسعى لحماية المسيحيين كما يعتقد البعض، بل على العكس تماماً فقد ساهموا وفي شكل فعّال في عملية القتل والتهجير.

كما سمحوا للعصابات الصهيونية من المرتزقة بالدخول إلى العراق وارتكاب المجازر وقتل الآلاف من العراقيين من دون تمييز بين المسلمين والمسيحيين وذلك لتدمير العراق والقضاء على حضارته العريقة الممتدة عبر آلاف السنين، والتي تعتبر شاهدة على أن الصهيونية اليهودية مجرد قبائل ليسوا من سكان هذه الأرض الأصليين، والدليل إقدامهم على سرقة الآثار العراقية بهدف طمس الحقيقة الناصعة التي تنفي مزاعمهم وتزويرهم التاريخ بأحداث التوراة اللاتاريخية.

إضافة إلى ذلك كله، كثرة المذابح التي حلّت بديار المشرقيين منذ القرن التاسع عشر حيث قتل أكثر من مليوني نسمة، وتم طرد وترحيل وتهجير وتشريد الملايين من المسيحيين المشرقيين.

رابعاً: لماذا يهاجر المسيحيون المشرقيون؟

جواباً عن هذا السؤال، هو تظافر الأسباب القاسية الواقعة على المسيحيين المشرقيين، منها: الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية حيث يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية إن لم نقل الثالثة أو كأهل ذمّة. فحقوقهم أغلبها مهدورة علاوة على التعصب الأعمى والأصولية المقيتة، والنظرة إليهم نظرة الغرباء والدخلاء في موطنهم الأصيل، أو كبقايا صليبيين إن لم نقل المتعاونين معهم والعملاء لهم، نظرة الإذلال والإجحاف بحقوقهم تنتشر بينهم البطالة وعدم التوظيف، وإن توظفوا فإنهم لا يرتقون الى مناصب أعلى أو درجات وظيفية أرقى.

من هذه الإجراءات اللانسانية وغيرها، والتي تدل دلالة واضحة إلى حملة إجلاء المسيحيين من منطقة الشرق الأوسط بناء على رغبة الصهيونية العالمية والماسونية المتمثلة بكيان إسرائيل العنصرية، والأرقام المخيفة التي وصلت إلى الوجود المسيحي في المشرق، فكل النسب تبيّن أن أعدادهم في تناقص مطرد، مخيفة، تقترب من الإلغاء، فالمؤامرة إذن حققت أهدافها، وما زالت ماضية في أساليبها بشتى الطرق، والمشروعات المطروحة رهيبة بالنسبة لهم في الملاحقة والمقاطعة.

هذه الهجرة والتهجير، وهذا الارتحال والاغتراب هو قتل غير مباشر للمسيحية المشرقية وأبنائها حيث تموت في نفوسهم عاداتهم وطقوسهم وتقاليدهم، وينسون تراثهم فيضيعون في مجتمع الغربة ولا يتأقلمون فتسودهم الكآبة والعقد النفسية لأسباب عدة منها اللغة والعلاقات الاجتماعية حتى الدينية إذ ينخرط غالبيتهم في الكنائس التوراتية ومذاهبها العديدة كالانجيلية والمعمدانية والمشيخية وحتى شهود يهوه والمورمونية.

خامساً: مواطن الهجرة

تؤكد لنا الوقائع أن المسيحيين المشرقيين توجهوا ويتوجهون إلى الولايات المتحدة الاميركية وكندا وبريطانيا وفرنسا والسويد ثم أستراليا وغيرها من بلاد الله الواسعة التي فتحت لهم أبوابها ويسروا لهم عملية الارتحال لغايات مدروسة منها لهدم الهوية أو الشخصية، ومن ثم القضاء على التاريخ والتراث والكنيسة المشرقية.

هنا نتساءل: هل الغرب والعالم الجديد، وأقصد الأميركيتين، مسيحية ومسيحيون؟

الذي لا يعرف ماذا يعني الغرب والعالم الجديد سوى القشور منه أي المظاهر التي تسمى حضارية كحقوق الحيوانات الأفضل من حقوق الإنسان والاعلام الخليع وتفشي المثليين والمثليات والأفلام الإلحادية وما إلى ذلك من ترهات الزمن الصعب، فالذي لا يقرأ ويتابع، لا يستطيع معرفة الحقائق، حقائق الوضع والحياة في تلك البلاد، وإنما يستمد معلوماته عمّا يسمعه من الناس البسطاء الذين يطلقون الدعايات دون أن يدركوا تأثيرها على مجتمعنا في المشرق المسيحي.

أن مجلة (Good News) أي «الأخبار السارة» وهي مجلة دينية مسيحية تصدر عن مؤمنين مسيحيين ذوي سلطات كنسية رسمية تصدر في بريطانيا والصادرة في لندن عام 1987، نشرت على صفحاتها حقائق الأمور وأوضحت للعالم أن نسبة المسيحيين في بريطانيا تبلغ 11 في المئة، وأن 89 في المئة من البريطانيين لا يؤمنون بالله والدين السماوي، وإنما يؤمنون بالدولة العلمانية فكم هم اليوم؟.

إن العربي المسيحي – لا أظن – أنه يهاجر إلى الغرب ولا إلى أي دولة في العالم بسبب الدين الذي تعتنقه تلك الدولة، وهناك الكثير من دول العالم التي لا تعتنق الأديان السماوية، ولكنها تستقبل مهاجرون، وتقبل أنواع اللجوء الإنساني والسياسي إلى بلادها، والمسيحي العربي والمشرقي الذي يرغب في الهجرة يتصرف كالغريق في البحر الذي

يحاول النجاة بأي وسيلة، فهو يتجه إلى أي جهة تقبله لاجئاً وبأي نوع من اللجوء، ليس المهم دين الدولة التي تقبله وإنما المهم أن يجد دولة تقبل به وتستقبله. وفي اعتقادي أن المسيحي العربي والمشرقي يتمنى أن تقبله دولة عربية مسلمة يجد فيها عملاً ورزقاً لعائلته ويفضلها على أي دولة أجنبية غير عربية لأنه يعلم جيداً أنه سيضمن الأمن والامان والتربية واللغة والتراث والقرب من الوطن الأم ويضمن لأولاده وبناته المستقبل الهادئ. ولا بد من القول بأن أكثر المسيحيين المشرقيين الذي تركوا وطنهم الأصلي، هاجروا إلى دول اسلامية قبلتهم مهاجرين ونازحين، ومنحتهم حق اللجوء الإنساني واعتبرتهم من أهل البلد الأصليين، ومنحتهم كافة الحقوق التي يتمتع بها المواطن في بلده مثل سورية والأردن ولبنان وتركيا.

نعم، يوجد مسيحيون في الغرب من جنسيات متعددة ولكنهم لا يستطيعون عمل شيء، وهم أنفسهم معرّضون إلى الضياع في ظل ما يسمى بالحرية والديموقراطية، وبقية الشكليات التي أراد منها أعداء الأديان السماوية أن تبرز وتعمل في المجتمع المتمسك بالدين السماوي لتخريبه وإبعاده عن الله جلّ جلاله الذي نعبده نحن المسيحيون والمسلمون.

أنه من المهم جداً أن يعرف العرب المسيحيون والمسلمون حقائق الأمور في البلاد الغربية، فلا يجوز لعربي مثقف أن يعتقد بأن حروب العالم التي تؤججها بعض الدول المصنعة للسلاح هي صادرة عن دول مسيحية، ولو كان هناك دول مسيحية حقيقية لمنعت وقوع الحروب وأغلقت المصانع التي تنتج السلاح وزرعت المحبة عوضاً عنها وفتحت بأثمانها المصانع والمعامل والمدارس والمستشفيات وعممت السلام والامان لا سيما للشعوب المقهورة والفقيرة.

نعم لو تزرع المحبة التي تؤمن بها المسيحية في نفوس شعوب العالم لما عاش الإنسان في خوف دائم ودمار شامل، فالمسيحية بريئة من تلك الدول التي تعيش على الحروب وتبني أمجادها على دمار الآخرين فتمتص دماؤهم وتحطم قدراتهم، كذلك الدين المسيحي بريء من كل شعب يجلب الويل والثبور للشعوب الأخرى. والعربي المثقف

والمتعلم، والسياسي المدرك للسياسة العالمية يعرف حق المعرفة أن سياسة الدول الكبرى ترمي إلى مصالحها فقط بعيداً عن الدين المسيحي وتعاليمه التي تدعو إلى المحبة والسلام والرجاء الصالح.

سادساً: الغرب المسيحي، هل هو مسيحي؟

رأينا أعلاه أن نسبة المسيحيين في بريطانيا تبلغ 11 في المئة فلا أعتقد أن نسبتهم الحقيقية في أميركا وفرنسا وكندا والسويد.. هي أفضل من نسبتهم كما أشرنا في بريطانيا، وسبب كل هذا معروف، حيث بدأت الحكومات هناك بإعلان العلمانية التي تعمل ضد الدين بصورة وأخرى – سيما الأديان السماوية – ووضعت قوانين وضعية حتى أنها ألغت كلمة الدين من دساتيرها، ورفضت كل دول الاتحاد الأوروبي وضع مادة خاصة بالدين في دستوره. فانتشر الفساد على حدّ قول نابوليون: «ارفع الأنجيل من العالم، وافتح في كل قرية سجناً». وأصبح الفساد حقاً من حقوق الإنسان فانتشرت المخدرات التي شوهت العائلة التي تعتبر أهم وحدة بنائية للمجتمع وكذلك في الكنيسة المسيحية، وانطلقت جحافل الشيطان تؤسس المجتمعات الفاسدة وهدفها قتل الأديان وبقتلها تقتل الفضائل والعادات والتقاليد السماوية متخذة أقنعة بيضاء كتبوا عليها «قد قتلنا الله ومشينا في جنازته» وهنا تتحقق نبوئة السيد المسيح الذي يقول: «يأتونكم بثياب الحملان وهم ذئاب خاطفة» وكذلك «ترى يأتي ابن الإنسان ثانية ويجد إيماناً على الأرض؟».

فلو كان الغرب مسيحياً لأمرت حكوماته بتدريس مادة الدين المسيحي في مدارسها الرسمية.

ولو كان الغرب مسيحياً لما سمحت حكوماته بتأسيس وتكوين كنائس خبيثة باطلة تعمل على تخريب وتزوير حقائق الدين المسيحي وهدمه.

ولو كان الغرب مسيحياً لما سمحت حكوماته بإنتاج أفلام سينمائية تحمل صفة الدين المسيحي ولكنها تزوّر الحقائق وتضعف تفكير المجتمع وتشلّه.

ولو كان الغرب مسيحياً لما سمحت حكوماته بإنتاج وتصدير الأفلام الخلاعية والإباحية بالمئات إن لم نقل بالآلاف سنوياً.

ولو كان الغرب مسيحياً لما عرضت 70 في المئة من كنائسه وأديرته للبيع لتصبح ملاهي ليلية ومطاعم للدعارة.

ولو كان الغرب مسيحياً لما انتشرت فيه عادات الفساد بكل أنواعه والمثلية في مجتمعهم وما إلى ذلك إضافة إلى الإجهاض والجريمة.

ولو كان الغرب مسيحياً لما وصلت نسبة الطلاق 65 في المئة (بين كل ثلاث حالات زواج توجد حالتي طلاق) ولما وجدت دوائر علمانية للزواج المدني (زنا مشروع) خروجاً عن تعاليم السيد المسيح.

ولو كان الغرب مسيحياً لما شرّعت حكوماته الزواج المثلي (الذكر مع الذكر والأنثى مع الأنثى) وأباحت الإجهاض، وهذا حتى المجتمع البهائمي يرفضه، واليوم يدرسون إعطاء حق التبني لهكذا زيجات فاسدة.

ولو كان الغرب مسيحياً، لما اعتبروا الفتاة التي بلغت سنّ الرشد وهي مازالت عذراء شيئاً معيباً، إنما عليها أن تسلّم نفسها لتختبر العملية الجنسبة قبل أن تعقد الزواج (زواج تجريبي).

كل ما ذكرناه آنفاً ينطبق على كندا والسويد والولايات المتحدة الاميركية، التي تعجّ بالمعتقدات الغربية كعبّاد الشيطان، وأصبح من حق كل إنسان أن يؤسس على ذوقه كنيسة ما، فما عليه إلا أن يسجلها بالمجلس البلدي بمئة تابع فقط وأحياناً اقلّ وأقل بحسب الطلب.

في الحقيقة إنها مهزلة العقل البشري، انها مهزلة كبرى.

وهكذا بعد أن نجحوا في قتل المسيحية في الغرب توجهوا نحو الشرق وخصوصاً إلى المشرق المسيحي ليقتلوا إيمانه المسيحي وينشروا فيه الرذيلة والفساد ليموت الموت السريع دون الانتظار إلى الغد بما ينشرونه من حقوق الإنسان الجديد حتى ليجعلوها مواد دراسية في التلفزيونات قبل المدارس.

لأجل هذا كله علينا نحن المشرقيون (مسيحيون ومسلمون) الانتباه والحذر الشديدين من هذه الأخطار الاجتماعية والأمراض النفسية ولئلا نقع في شرك أعداء الإيمان والأخلاق ومخططاتهم التخريبية لمجتمعنا ولعاداتنا وتقاليدنا الأصلية، وحضارتنا الجليلة سيما من دعاة الصهيونية العالمية والماسونية المحرمة.

مما سبق نتساءل، هؤلاء المهاجرون الذين هجروا وطنهم ليعيشوا في وطن بديل، ماذا يعملون هناك؟ وماذا يشتغلون؟ وكيف يعيشون؟

من المؤكد ان أغلب المهاجرين ليسوا من حملة الشهادات العليا، ولا يملكون بين أيديهم الخبرة التكنولوجية الحديثة بمهنة معينة أو حرفة معينة، إنهم يقصدون البلد الجديد المجهول بكل ما يجهلون وليس لديهم أي معرفة عن المجتمع والعمل وقوانينه ولا حِرفة أو مهنة لهذا يفاجئهم المجهول.

فماذا يعملون هناك؟ وكيف يتصرفون؟ إن لم نقل أنهم يسقطون في التجربة والحيرة القلقة، فيتوجه أغلبهم إلى الأعمال العضلية التي كانوا يرفضونها في مجتمعهم الحقيقي، فنراهم في المطاعم يشتغلون بغسل الصحون وتنظيف الطاولات. أو نراهم على الأرصفة والساحات يمسحون الأحذية، أو يبيعون الصحف والمجلات. وقد نراهم في الكراجات أو الساحات العامة يمسحون زجاج السيارات أو ينظفونها، وقد نراهم في الشوارع يكنسونها، وما إلى ذلك من الأعمال التي كانوا يتأففون من العمل بها في بلاهم الأصلية، نواطير وحراس وخدم وغيرها.

هذه الحياة الجديدة تقودهم إلى الكآبة والتوحد، وتنشأ لديهم العقد النفسية المختلفة، فيضيعون في المجتمع الجديد صنيعة الأيتام على مأدبة اللئام، وبالكاد يحصلون على قوتهم اليومي، وقد ينحرف بعضهم فيقوم بأعمال أخرى تأباها النفوس الشريفة والمؤمنة، ويبقون هكذا اعوام واعوام ولا يستطيعون التطبيع مع مجتمعاتهم الجديدة فينكفئون إلى نفوسهم خوفاً من الضياع بالنسبة للجيل الأول، أما الثاني فأقل، والثالث ينسى ذاته وتاريخه وتراثه فيضيع بين الهويتين ويصير هجيناً، والهجين دوماً لا يستطيع أن يتلائم أو يتوائم، عملاً بالحكمة من لا يملك الأصالة فهو لا يستطيع أن يأتي بالأمر الأصيل.

وهكذا ينتشر بينهم الفقر والعوز وبالتالي قد يدفعهم هذا إلى الإنحراف الإجتماعي والحياتي مما يؤثر عليهم وعلى أولادهم بالتتابع الجيلي أي بتواتر الأجيال، لهذا السبب يصبحون دائماً تحت رحمة سادة القوم ومستغليهم لأنهم قابلون لكل إستغلال.

سابعاً: ما مستقبلهم في ديار الغربة؟

هذا هو السؤال المصيري صحيح أن المهاجرين الأولين الذين قصدوا الأرض الجديدة (الاميركيتين) والأرض العتيقة (أوروبا) إستطاعوا أن يبنوا لهم مستقبلاً مشرقاً، ولكن محصوراً ضمن عوائل معدودة على أصابع اليد بما كوّنوه من الثروات والأموال إذ كان عدد المهاجرين قليلاً، والطاقات بعدها سليمة وقديرة فتخرّج منهم الإقتصاديون الكبار وتبوأوا المجالس في مناحي الحياة المختلفة، سياسياً وعلمياً وإجتماعياً واقتصادياً، فكان لهم مؤسسات كبيرة، ومنهم النوّاب والحكام والمدراء العامون وغيرها من المصالح المبنية على الشركات الضخمة، إلا أنهم أضحوا يتنكرون لكل ما هو مشرقي ومسيحي بالذات، هم في المجتمع وليسوا منه، هم كما أتصورهم أنا، كالدمى للتسلية في المجتمع والزينة التي يتزيّن بهم المجتمعات ولكن لعنة المشرقية تلاحقهم كلعنة الزواج بسواد بشرتهم لم يذوبوا ولم ينصهروا ان لم نقل لم يتطبعوا بذات المجتمع، مستقبل مجهول نوعاً ما حينما تحنّ وتجن الحقيقة. فينظر إليه كدخيل ومتخلف لأنه قادم من العالم الثالث النائم وليس النامي.

فأيّ مستقبل هذا؟ مستقبل مشبوه يحيطه كل المجاهيل، لأن الحياة ليس الطعام والشراب وارتداء الملابس والرحلات، لأن المشرقيين هؤلاء تنعدم عندهم الجيرة والعلاقات العائلية أو الإجتماعية، كالتزاور والعيادة للمرضى أو التعازي لبعد المسافات، وهكذا يغرق الناس في بحر من الفوضى بأمواجه الشديدة والقاسية في هدم الكينونة المشرقية في الصيرورة الغربية.

وعلى الطرف الثاني ليس المستقبل فقط هو الأمان والسلام والإطمئنان الذي هو الآخر مفقود لكن بصورة نسبية أكيدة فلو كانوا يملكوه لما هاجروا، فالأمر الذي نفقده في المشرق نحن المشرقيون هو السلام والأمان ولكنه لا بد من انه آتٍ آتٍ.

ثامناً: دور الكنيسة

كثيرون هم المشتركون في تصعيد الهجرة، ومنهم آباء لنا وجدود، أصدقاء وأخوة، محبون وأعداء ومنتفعون وثمة آخرون قد لا ندري من هم، إنهم قوى خفية تعمل لإجلاء المسيحيين من الشرق الأوسط وبكل الطرق: الحروب والمجاعات والركود الإقتصادي، الإرهاب والفتن، وما إلى ذلك من وسائل لتهجير المسيحيين، وتفريغ المنطقة، من المسيحية الحقيقية ولن ننسى أيضاً وجود أوضاع قديمة، محبطة هي وليدة سنين وحالات وسياسات يصعب تحديدها بدقة، فأنا لن أرمي مهاجراً بحجر ولن أبارك يداً ساعدت على الهجرة إنه توخي موضوعية وواقعية ومعاناة.

وهنا لا بد من ذكر الكنيسة في هذه المعمعة. أن الكنيسة لعبت سابقاً ولاحقاً في التحريض على الهجرة وخصوصاً على يد بعض الآباء الجهلاء الذين لا يملكون المواطنة الصالحة والصحيحة، فنجدهم في زياراتهم للعوائل . وهذا ما لمسته في العراق - كل أحاديثهم تدور حول الهجرة يحرضون عوائلهم على الهجرة للخلاص من حالة معينة هذا أولاً.

وثانياً: تقصير الكنيسة في وعظاتها ولقاءاتها للكلام عن الهجرة ومساوئها (الهجرة نعمة أم نقمة) وللتحذير من مغادرة الأوطان إلى أرض الغربة والأرض هذه تكون دائماً أرض الصعوبات.

وثالثاً: أنا أتساءل شخصياً، ماذا يفعل بعض رجال الكنيسة لحماية المسيحيين من الهجرة؟ وماذا يقدمون لهم للبقاء في أرضهم؟ أجيب وبكل حزن وألم إنهم دوماً المشتكين والباكين مما يحملهم إلى الإحباط بطريقة التخويف من المستقبل والحاضر.

وهناك أحداث واقعية بالعشرات تبرهن ذلك. فأيام الحصار على العراق من عام 1990 الى 2003، لو وُزِعَت كل المساعدات التي وردت للمسيحيين في العراق بصورة عادلة لما هجر عراقي بلده، إنما كانت تذهب إلى الأقربين «إنما الأقربون اولى بالمعروف».

وهذا خطأ، وكذلك ذهبت هذه المساعدات إلى الأصدقاء والمعارف، للعوائل التي لا تحتاج إليها، وحرمت من هم بأمسّ الحاجة إليها، أي بكلام آخر إن الكنيسة هنا لعبت دوراً قذراً – عفواً – في تعاملها مع أبنائها، وهذا السلوك غير السوي لرجال الكنيسة، يدينهم أمام الله والناس، فهو سلوك منحرف وناقص. وإن أردنا أن نفسر هذه الظاهرة ما لنا إلا أن نقول: إن هؤلاء رجال الكنيسة يتعاملون مع الغرب وتحديداً مع السياسة الاميركية التي تعمل لمصلحة الصهاينة.

إضافة إلى ذلك أن الكنيسة بهذه الفترة كانت مكتوفة الأيدي تبدو كالمتفرج على شعبها كيف يرحل أبناؤه، يقصدون العالم المجهول، ولا تحاول أن تساعدهم ولو بكلمة طيبة. «الكلمة الطيبة صدقة» (يحملون الناس أحمالاً ثقيلة ولا يودون زحزحتها ولو بطرف إصبعهم). بل على العكس يحرضون الناس على الهجرة، ويحثونهم إلى الإرتحال وذلك لغرض في نفوسهم هو أن يتبعونهم بحجة حاجتهم إلى كاهن ليخدمهم.

ومن الافكار التي تساعد الكنيسة على تثبيت أبنائها بالأرض والتجذر فيها:

1 – للكنيسة والاديرة أوقاف كبيرة وواسعة من الأراضي والعقارات تقدّر بملايين الدونمات، لا سيما في لبنان فلو تنازلت إدارتها، سواء كانت الكنيسة او أمّ او معلمة، ووزعت بعضاً من ميراثها هذا لأبنائها، وقد حصلت عليه من أجدادهم كقطع من الأرض الصغيرة لبناء بيت أو زراعة أو بناء معمل صغير أو مصنع لحملت الآلاف من الشباب للبقاء بأرضهم والدفاع عنها، وشجعتهم على الزواج وتكوين عائلة تثمر وتنمو وتسكن في الأرض.

2 – رفع الضرائب الدينية، التي فرضتها الكنيسة من حيث تدري أو لا تدري، لأنه من حق المسيحي الطبيعي والشرعي أن يعتمد بالمعمودية المقدسة ولكن دون ضريبة فوق طاقته، كأن يدفع للكاهن المعمِّد ويسدد له أجرة المعمودية بمبلغ لا يستهان به،

وكذلك القول في عقد الإكليل «الزواج» و«دفن الموتى» و«حسنات القداس» وغيرها حيث يُثمن الذي لا ثمن له «الأسرار» التي أعطاها السيد المسيح بقوله: «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا».

يقول مار بولس الرسول: «خادم المذبح من المذبح يقتات»، ولكن ليعيش هذا الخادم (الكاهن) بالإنصاف كأبناء رعيته وليس فوقهم في بحبوحة من الحياة في سيارته ومكتبه وملبسه ومصروفه، كأنه الرئيس فوق الرؤساء.

3 – «الكنيسة أمّ ومعلمة» فالأم التي لا تعلّم أولادها ولا تربيهم ماذا تكون... فعليها إذن تقع مسؤولية تعليمهم في مدارسها بأقساط مخفضة، وتعفو من لا يستطيع دفعها لا أن تطرده وتتركه سائباً في الطرقات، وكذلك تفعل في أجور مستشفياتها، لكي تكون أماً بالحق والحقيقة وما تحويه كلمة الأم من العاطفة والحنان والمحبة والرحمة، فتكون أماً صالحة ومعلمة واعية كمعلمها السيد المسيح الذي أسسها بمحبته، وفداها بدمه لخلاص أبنائها.

4 – إعادة الثقة بين الخوري ورعيته وذلك بزياراته التفقدية لأبناء الرعية أسوة بالراعي الأول الصالح يسوع المسيح يتفقد أحوالهم الحياتية منها والإجتماعية، وما في العوائل من شوائب ونواقص روحية أو مدنية، فهو المسؤول الأول والأخير عن رعيته، الراعي الصالح يعرف رعيته وينادي أبناءها بأسمائهم وهي تعرف صوته فتتبعه أي أن ينزل خورنة الشوارع.

وعليه فلا بد للكنيسة بأكليروسها أن تعيد الرحمة «إرحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»، على الكنيسة ان تعيد شبابها بثوب شبيبتها المسيحية الحقيقية: مسيحية المسيح مؤسسها الذي علّمها ونادى بها وطلب من أتباعه أن يطبقوها «ما من حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه» وأيضاً «أحبوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم» وإلا كيف نستطيع أن نبشر به، ونعطيه للآخرين. «إذهبوا إلى أقاصي الأرض وبشروا وعلموا وعمّدوا». وإلا تصحّ بنا مقولة الزعيم الهندي مهاتما غاندي: «أعطوني مسيحكم ولا أريد مسيحيتكم».

والحلّ الأفضل والأشمل يكون بالعودة الى الجذور، الى الكنيسة الاولى في فجر المسيحية.

5 - الوحدة المسيحية، يكفينا إنقساماً وتمزقاً ما دمنا كلنا نؤمن بأن المسيح إله تام وإنسان تام، وإن الإنجيل واحد، والمعمودية واحدة سيما الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وإلا ما موقفنا من الجنود الرومان يوم صلب المسيح إنهم رفضوا تمزيق ثوب يسوع، ونحن كل يوم نمزقه ولا نرغب في رأب الشق، بل نطعنه كل يوم طعنة نجلاء.

تاسعاً: السينودوس من أجل الشرق

اقامت الكنيسة الكاثوليكية من أجل مسيحي المشرق سينودوس إفتتحه بشخص البابا بينيديكتوس السادس عشر. وبعد القداس الختامي عاد الأساقفة الذين شاركوا في الجلسات، كل إلى رعيته منهم مفعمين حماساً وتصميماً، ومنهم عادوا كما ذهبوا.

في واقع الحال، لم أكن متحمساً لهذا السينودوس، ولم أعره إهتماماً ملحوظاً ولم أتابع أخباره لا من بعيد ولا من قريب، لأنني - وللأسف استعمل كلمة الأنا هنا - لم اكن اعلق آمالاً جسيمة على السينودوس وما دار فيه وحوله، إذ كنت على يقين أنه مثل سابقيه من السينودوسات.

وعلى هذا الأساس وجدت من الضروري أن أدوّن بعضاً من الأفكار عن السينودوس ومجرياته، ويكون جواباً لكل الأسئلة التي قد تثار حوله.

مع الأسف أن أساقفتنا غالباً ما تخمد الحماسة عندهم بسرعة، وتعود الأمور إلى سابق عهدها دونما تغيير يذكر، وخير مثال على ذلك مجموعة الرسائل المهمة التي دأب على إصدارها منذ عشرون عاماً مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، وتوصيات المجالس والمؤتمرات الكنسية العدة التي عقدت على مدى العقود الثلاثة الأخيرة وكمثل الحوار المسيحي - الإسلامي ماذا جنينا منه منذ أربعون عاماً خلت كأننا في اليوم الأول من بدئه. هذا الحوار العقيم الذي ولد ميّتاً.

كل هذه الوثائق كان ينتظر منها أن تتحول دافعاً حقيقياً للمراجعة الذاتية وإعادة النظر وتغيير الرؤى من خلال مبادرات فاعلة تتعاون على القيام بها الكنائس المحلية في ما بينها مع الجهات المسؤولة في أجهزة الدولة والمؤسسات الأهلية، لكن شيئاً من هذا لم يحصل، وتبين بالتجربة إنها على ما فيها من أقوال حكيمة وآراء سديدة لم تؤثر قيد أنملة، في الحدّ من النزوح المتواصل لمسيحي المنطقة، على اختلاف ظروفهم الإجتماعية والإقتصادية.

هذا النزوح، لا يمكن في رأينا الإكتفاء بتعليقه على أسباب خارجية سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية بل علينا التحلي بالجرأة والحماسة والشجاعة الأدبية لمراجعة ما عند كنائس المشرق ذاتها من أمراض بنيوية ومشكلات داخلية مستعصية على الحل، لا بل تزداد تفاقماً، ما يجعل من مسيحي المنطقة ضحايا وضع مأساوي وميئوس منه يواجهونه في بلدانهم ومجتمعاتهم وكنائسهم على حد سواء. فلا يبقى أمامهم والحال هذه سوى الإرتحال إلى بلاد الله الواسعة، بحثاً عن حياة تحفظ لهم كرامتهم الإنسانية والدينية إن وجدت هناك.

هناك عمل كبير ينتظرنا إذا أردنا بالفعل تثبيت المسيحيين في أرضهم وأوطانهم، عمل له أبعاد تاريخية وتربوية تعزز الشعور بالإنتماء لدى الأجيال الطالعة، وله أبعاد سياسية تتطلب حواراً جدياً معمقاً في أنماط الممارسة الديموقراطية التي تسمح للمسيحيين، على قلّتهم العددية، أن يجدوا الفرص الملائمة للمشاركة في الشأن العام، والمساهمة في بناء المستقبل، مستقبل بلادهم وأحفادهم بإعتبارهم مواطنين كاملي الحقوق والواجبات فيها.
والخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل هذه هي وفق رأينا محاولة استعادة الثقة المفقودة بين السلطة الكنسية والشعب المسيحي والتي بلغت في بعض الأحيان حداً ينطبق عليه وصف الإنجيل «هوّة عظيمة قد أثبتت بيننا وبينكم» (لوقا 16:26).

وقد كان إنعقاد هذا السينودوس مناسبة مهمة إنكشف فيها مبلغ تدهور الثقة ما بين السلطة والمؤمنين مبلغاً يجعلنا نزعم أن معالجة هذه المعضلة هو المدخل الحقيقي لأي تغيير أو إصلاح منشودين.

«لقد عرف أن المدعوين هم السادة البطاركة والأساقفة والرؤساء العامون لمختلف الرهبانيات وأني لأسأل هل هؤلاء المدعوين يمثلون حقاً المسيحية الشرقية.. في ما لها وما عليها لا سيما في مثل هذه الظروف الخطيرة بل المصيرية؟ فأنا أخشى أن تكون الكثرة فيهم خارج ما يتوقع منهم الشرق كله بشقيه المسيحي والمسلم على السواء من مواقف وتصريحات متكلفة، تعلموا بحكم مناصبهم ومنظورهم الخاص، أن يتحاشوها أو يلطفوها بما يلغيها لأسباب معنوية ومادية لم تعد تخفى على أحد».

لذا رأيت أن اقترح توسيع الدعوات الصادرة عن الكرسي الرسولي بحيث تطال أصواتاً جريئة وفاعلة من مختلف الأوساط المسيحية، أولاً بشقيها الكاثوليكي والأرثوذكسي من كهنة وعلمانيين على السواء ومن مختلف الأوساط الإسلامية ثانياً، ولأن غالبية السكان من المسلمين يفترض في ما سيقال في هذا المؤتمر ويصدر عنه أن يعنيهم كما يعني المسيحيين سواء بسواء.

إذا كانت الكنيسة جماعة المؤمنين وكل المجتمعين في السينودوس إكليريكيون فلا يشكلون إذن كنيسة، إنما رؤساء كنائس المرسومين بالسيامة الكهنوتية أو بالتكريس الأسقفي نالوا نعمة الحال، فأرى أنه لمهم جداً أن نعطي الكلمة إلى علمانيينا وخصوصاً إلى شبابنا لأنهم أول من يهمه الموضوع، إن لكلمتهم الكثير من المنافع فيمكن لشبيبتنا الكلام بشجاعة أقوى وبصراحة أكبر عن صعوباتهم وفي غياب المساعدات المادية والضمان الإجتماعي التي تستفيد منها الكنيسة ورجالها.

لقد توقعت والكثيرون أن ينتهز الفاتيكان فرصة السينودوس ليفسح في المجال لأصوات النخبة من المؤمنين الذين يعيشون واقع الشرق الأوسط كي يعبّروا عن نظرتهم إلى واقعهم الكنسي والمدني، ويقدموا تصوراً لمستقبلهم مع الإقتراحات التي يرونها مناسبة لتحقيقه، بل إنتظرنا أن يكون السينودوس نموذجاً جديداً لطريقة الممارسة العملية «للشركة» الكنسية بين الإكليروس والمؤمنين نموذجاً تحتذي به في المستقبل الكنائس المحلية، التي تفتقد بشدة لهذا النوع من الشراكة.

فليبدأ العائدون من روما بإتخاذ المبادرات الجدية، التي تسمح لهم بالإصغاء

الحقيقي لمؤمني كنائسهم الواعين والملتزمين وليقوموا بالخطوات الفعلية، (لا الخطابية) التي تحقق مشاركتهم الفاعلة، والمثمرة في مسؤوليات جماعاتهم الكنسية، فالأفعال وحدها هي الكفيلة تدريجياً بإعادة بناء الثقة بين الطرفين ويمكن آنذاك لبراعم الربيع الذي يبشرنا به السينودوس أن تزهر وتتفتح «فنجني بفضل عمل نعمة الروح القدس ثماراً وفيرة، ونحن في إنتظار القادم».

عاشراً: المسيحيون المشرقيون إلى أين؟

حاولنا توضيح الصورة القاتمة بإطارها عن المسيحيين المشرقيين التائهين في هذا المشرق، بين آثار الكنيسة المتمزقة ووديان الدولة اللادولة لا يدرون إلى أين يتجهون وبمن يتشبثون وما الحلول التي تطرح أمامهم في تحسين أحوالهم على كافة النواحي والصعد.

نحن أمام المجهول في الحاضر المضطرب، والمستقبل القاتم لأن لا صورة واضحة على المدى القريب حيث كل الأمور في تضاد، ترادف وتتباين، فيطرح السؤال نفسه، هل ستبقى الأواصر مترابطة بين الوطن الأم والوطن المجهول والجديد؟ فنقول من المؤكد أن هذه الأواصر سيصيبها التخلخل والتناقض سيما مع الأجيال الطالعة، وأقصد بذلك الجيل الثاني والثالث من المهاجرين، لأنه قد لا تبقى مع الجيل الأول متواصلة، وسببها البعد بين الوطنين، فتنقطع العلاقات العائلية وذوي القربى، وبإنقطاعها تنقطع الصلات الإجتماعية والتراثية والثقافية سيما ما يوّحد بينها، وهذا الإنقطاع يسبب أزمة أخلاقية: منها نقص في عدد الذكور وازدياد عدد الاناث فيضطرب حبل الزواج وتكوين العائلة الجديدة في الوطن الأم وكذلك في الوطن الجديد، إنها مشكلة إجتماعية ذات نتائج لا تحمد عقباها إضافة إلى تخلخل المجتمع وانحطاط القيم والمثل العليا التي كانت رأس مال الأيام السابقات في الوطن الأم. فإن المهاجرين هناك في المجتمعات الجديدة يخرجون عن الأعراف والتقاليد إلى أعراف وتقاليد جديدة قد لا تلتقي بالقديمة بأي حال من الأحوال.

هذه الأمور وغيرها الكثير تدعونا إلى أن نبقى مستمرين في التساؤل «مسيحية المشرق إلى أين؟» ويبقى السؤال مطروحاً إلى ما شاء ربك... إلى أين؟ إلى أين؟

وهنا لا بد من القفز على الجواب شئنا أم أبينا، أي ما هي الحلول التي يجب أن نطرحها على بساط البحث، لنطبقها ولو من باب اللاتطبيق والسلوى.

وفيما يلي بعض الحلول والطروحات:

1 – وقف موجة النزوح الداخلي والهجرة الخارجية إضافة إلى الهروب والتهرب، لأن الإنسان المسيحي المشرقي بات خائفاً من الإنطلاقات الجديدة أعني الإضطهاد والإرهاب الأصولي.

2 – محاربة البطالة المتفشية في أوساط الشبيبة الطامحة إلى عيش كريم، وبناء عائلة مسيحية يحوطها الأمان والإطمئنان والسلام.

3 – نشر ثقافة الآخر وقبوله، أي الإنفراج الإجتماعي الأخلاقي والعقلي بين المسلمين والمسيحيين، وتبادل وجهات النظر العملية والحياتية والتماسك بين الأفراد والجماعات ضد العدو المشترك إسرائيل والصهيونية التي هي رأس الحربة في نشر الفتن وتبنيها في شرقنا المؤمن والتكاتف على قهره ومحاربته على الصعيدين الشرقي والغربي، ثم عدم الإيمان بالتطبيع بين مجتمعاتنا ومجتمع اسرائيل اللقيط.

4 – عدم الإنصياع للإعلام المدسوس والكاذب، وكذلك عدم القبول بالدعايات المغرضة عن طريق الكنائس الصورية والكارتونية المتمثلة بالمعمدانيين والمشيخيين واللوثريين والإنجيليين والسبتيين وكنيسة الله وكنيسة الإنجيل وكنيسة يسوع يحبك الغربية الآراء والمبادئ إضافة إلى شهود يهوه والمورمون الحاملة لآراء التوراة والتعاليم المناوئة للمسيحية الحقيقية والتي تصور العالم بالفردوس المفقود وهي تعمل لخراب المعمور.

5 – التأكيد على الدولة بعدم السماح بالهجرة وعدم الدعوة إليها بل إلى منعها بكافة الطرق المشروعة والقانونية كعدم السماح في منح الأوراق اللازمة للسفر وترك الوطن بالتعاون مع الكنيسة الواحدة التي هي الأخرى عليها أن تمنع السفر لأبنائها وإلا ستضحى الكنيسة جدران بسقف ليس إلا، دون مؤمنين وأبناء وبالتالي ستصبح مباني أثرية كالاطلال للدراسات.

6 – غلق أبواب الهجرة بوجه طالبيها، أي على الدول التي يهاجر إليها المسيحيون المشرقيون أن يمنعوا الهجرة إلى بلدانهم تماماً وعندئذٍ توضع الحدود القسرية فيمكث كل ببلده ولم يعد يفكر بالهجرة كالولايات المتحدة وكندا والسويد واستراليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها... وهكذا يكون قد تعاون كل الأطراف لمنع الهجرة.

–7 وأخيراً وضع حماية دقيقة وقوية للمحافظة على المسيحيين المشرقيين، حماية الدولة التي تحب شعبها وليس الحماية الصورية والمخطوطة على الورق بل بيد من حديد وسهر متواصل وإرجاع الثقة بين الدولة ومواطنيها، سيما بكم الأفواه الأصولية، التي تحرّض على الفتنة وقطع يد كل من يلعب بالنار.

الخاتمة

هذه الاسباب وغيرها قد تضع حداً للتخفيف من الهجرة والرحيل نحو الإغتراب وخوف الإطالة والإسترسال لا بد من اختتام الحديث الذي نال منا الكثير جواباً لـ «المسيحيون المشرقيون... إلى أين؟»، ويبقى السؤال قائماً ما دام المسيحيون المشرقيون لا هوية حقيقية ولا مهمة (واجبات) تكفلهم لإدائها في سبيل تطوير هذه البلاد وجعلها اللبنة الأولى للبناء فوقها على أساس من الصخر، وإلا سيكون البناء على الرمل فيسقط ويكون سقوط ذلك البيت عظيماً، لأننا لا يجب أن نبني بلبنات المجاملات والنفاقات على حد القول «فرحني وافرحك» وهذا بهتان وتزوير.

ويبقى السؤال ينتظر الجواب، ولا جواب إلا العمل السليم والنيات الحسنة... مساكين مسيحيو المشرق، لا يعرفون ما يفعلون على عكس أعدائهم التاريخيين: اليهود وإسرائيل، الذين يعرفون ماذا يفعلون مع مساعدة الدول الكبرى، وقوتهم وبطشهم لإبادتهم وإغتصاب أرضهم من الفرات إلى النيل فيطمسون حضارتهم وتراثهم، ولكن هيهات لأنهم الأقوى وهم الباقون «أبواب الجحيم لا ولن تقوى عليهم» أبناء المشرق للمشرق منذ فجر البشرية وإلى انتهاء الدهر.

الباب الثاني

إجلاء المسيحيين من الشرق الأوسط

مصطلح «الشرق الأوسط»

ان مصطلح «الشرق الأوسط» هو مصطلح سياسي جديد لم يكن موجوداً قبل نصف قرن أو أقل، فهو مصطلح أفرزته الصهيونية العالمية وعممته اسرائيل عن طريق مؤسسيها الغربيين (فرنسا وبريطانيا وألمانيا) لأنه يخدم أهدافها وغاياتها في الشرق إضافة إلى التزلف للغرب، فنحن نرفضه جملة وتفصيلاً ونرجع إلى ما كان معروفاً منذ قرن وأكثر إلى مدلول «الشرق الأدنى» و«الشرق الأقصى» وهما مصطلحان جغرافيان واقعيان، أما «الشرق الأوسط» فليس جغرافيا، إنما سياسي مدسوس. ونحن في هذه الحال، من بلدان الشرق الأدنى، وكلنا نتذكر إذاعة البث البريطانية من بيروت باسم «إذاعة الشرق الأدنى» والشرق الأقصى الذي يمتد من إيران والهند والصين واليابان ومصر والحال هذه ليست من دول الشرق الأوسط ولا من دول الشرق، فهي دولة أفريقية، فزّجها في ميدان البحث يكون عبثاً على الموضوع وليس منه.

كما أرغب في توضيح ما المقصود بالمسيحيين المشرقيين. فالكنيسة المشرقية تاريخياً هي الكنيسة التي تبنت النسطورية وانحصرت في بلاد الرافدين (العراق)

تحت سلطة الجثلقة في طيسفون (المدائن) ومن ثم إمتدت إلى إيران ومنه على أثر التبشير المسيحي النسطوري وصلت البشارة إلى الهند والصين. فالمسيحيون المشرقيون هم إذن أبناء الجاثليقية النسطورية والتي تكثلكت في القرن السادس عشر واتخذت إسم «الكنيسة الكلدانية» تحت سلطة بطريرك بابل، فيكون أبناء المشرق هم أبناء الكنيستين الكلدانية الكاثوليكية والآشورية النسطورية ومعهم السريان بشقيهما الكاثوليكي والأرثوذكسي (اليعاقبة) يومذاك.

أما دمج مسيحيي بلاد الشام ولبنان والأردن وفلسطين فهو تحصيل حاصل لأن المسيحيين وهذه بلادهم من ذات المذهب والإيمان، ولما كان الفرع يرجع إلى أصله نستطيع أن نطلق هذا الإصطلاح «مسيحيو المشرق» لأبناء كنيسة ما بين النهرين (العراق) وأبناء بلاد الشام فيصح التعبير الشامل «أبناء المشرق بحسب التقسيم العقائدي الكاثوليكي والنسطوري والأرثوذكسي».

منذ أواسط القرن التاسع عشر بدأ اليهود يفكرون بجمع شتاتهم من أوروبا وآسيا وأفريقيا في أرض يكوّنون عليها كياناً سياسياً خاصاً بهم. وعندما نشأت الصهيونية بزعامة تيودور هرتزل النمساوي، وعقد المؤتمر الأول في بال بسويسرا عام 1897، قرّ رأيهم، وأصرّوا عليه أن يؤسسوا كياناً لهم في فلسطين، أرض الميعاد بحسب التوراة، وراحوا يسعون بكافة السُبُل، فاستحصلوا بعد عشرين عاماً أي سنة 1917، على وعد بلفور، والذي صدر في 2 تشرين الثاني من العام ذاته. وبذلك حققوا حلمهم الأول بمساعدة بريطانيا صاحبة الوعد، ومن ثم من سائر دول الإستعمار الأوروبية فرنسا وألمانيا، إضافة إلى استكلاب الولايات المتحدة الاميركية التي أيدت ـ وما زالت ـ هذا الكيان بكل قوة وكأنها ولاية من ولاياتها، فخسر العرب حروبهم الثلاثة وأقرّوا بالواقع المرير أي قرار التقسيم وتأسيس الكيان السياسي ـ إسرائيل.

مقدمة

بعد قيام إسرائيل شرعت بمعاونة حركة الصهيونية العالمية، تعاضدها الماسونية بترسيخ هذا الكيان والإعتراف به، ومن ثم توسيعه على حساب الأقطار العربية، فكان التفكير أولاً بجمع يهود الشتات وإسكانهم في فلسطين (من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وروسيا... ومن ثم من العراق واليمن وسورية والحبشة وغيرها) حيث بلغ عددهم ما يقارب السبعة ملايين وأكثر.

وما حدث أولاً قبل هذا من خلق الفتن بأسبابها لتهجير المسيحيين من الأقطار المشرقية، على أمل تفريغه منهم فيخلو لهم الجو لإسكان اليهود القادمين من الغرب، فانتشرت الإضطرابات في المشرق المسيحي وازدادت تفاقماً، ومنها:

- **مذبحة حلب عام 1850:**

يقول الشاهد العيان المطران بولس دانيال (1831-1916) ما نصه: «... في الساعة الرابعة من ليلة الجمعة يوم 10 تشرين الثاني سنة 1850 حدث صراخ مرعب عظيم ومخوف في دار البطركخانة (...) من الإسلام المسلحين بسيوف وخناجر ومديّات وعصي، وصاروا ينهبوا ويشلّحوا ويجرحوا. ورأينا الكهنة مجتمعين يبكون قائلين: يا ويلنا أن الإسلام قامت على النصارى، ويلنا على هذا المصاب الأليم العظيم ومنهم منهزمين لكي يختفوا في الأقبية والسراديب ومغائر البيوت حتى في آبار الماء، وصوت نحيبهم يفطر القلب الجلمود (...) وامتلأت البطركخانة من الرجال والنساء والبنات والأولاد

المنهزمين من بيوتهم والجميع ينتحبون بالبكاء المرّ طالبين النجاة والحماية وليس من معين ومحامي، وأكثرهم عرّوهم من ثيابهم وسلبوهم الحلي الذهبية، والفضية، فصرنا نحن أيضاً نبكي ونندب حالنا هذا التعيس، عندما دخلوا لينهبوا غرفنا وسلبوا ثيابنا وتركونا عرايا حفايا ما عدا الثوب والكسوة ولا نعلم إلى أين نهرب لنتخلص من هؤلاء القوم البرابرة.

محلة الصليبي، إمتلأت من الإسلام وصاروا يكسّرون أبواب الدور، وينهبوا البيوت، فتفرقت الناس في تلك الليلة وتشتتوا في الأزقة، والمحلات مشلحين عرايا حفايا رجالاً ونساء ونحن معهم لا نعلم أين ذاهبين والواحد ما يعلم بالآخر.

ما أن دخلت الى غرفة الديوان الموجود فيها البطريك حتى وجدت جنود من الإسلام يهددونه بالقتل إذا لم يدفع لهم الدراهم والأواني الكنائسية الثمينة، ويضربونه بالمديات والعصي على رأسه وظهره واكتافه، وواحد منهم ضربه ضربة مؤلمة بالمكيار على صدغه الايمن، فخرجت عينه من مكانها وتورمت وازرقت، فأغمي عليه ووقع على الأرض، وآخر ضربه بخنجر في كتفه وظهره، وآخر مسكه من رجليه وصار يسحله على الأرض، وصوت قرقعة رأسه يسمع على البلاط وتمّ سحبه إلى أن أخرجه من باب الديوانخانة، وسحب السكين من غمدها (الخنجر) وأراد أن يذبحه كالخروف وأنا واقف ومعاين هذا العمل الظلمي بعيني وصرت أبكي على هذا الرجل القديس.

ولكن تقدّم واحد من الإسلام الذي حنّ قلبه عليه ومسك يد الرجل الذي أراد أن يذبحه وأخذ السكين من يده وقال له: «لا تمدّ يدك عليه وتذبحه» وخلّصه من بين يديه ولفّه بعباءته وهو مخضّب بدمه واصبح جسده جرحاً واحداً وحمله على ظهره ومضى به إلى أين، لا أعلم ( ).

• مذابح عام 1860:

المسيحيون، ضحية التاريخ، فقد حملوا في أعناقهم ذنوب الآخرين. هم كبش محرقة حقد الدروز والمسلمين. وفي الحقيقة كان يجب أن يُصَبّ حقد الدروز على

المسلمين، ولكن المسلمين هم الأقوى في الشرق، فحوّلوا عنهم الحقد إلى المسيحيين، وأن «أخذ الثأر» الذي أوجبته الدرزية على أصحابها، هو بأساسه ينفّذ بالمسلمين لا بالمسيحيين. ولكن الدولة العثمانية المسلمة منذ السنة 1841م عرفت اللعبة في جوهرها، فاستمالت إليها الدروز عوناً على المسيحيين فكان لها ما اشتهت فغُدِرَ بالمسيحيين طيلة عشرين عاماً وهم لا يصدقون بأن الذين عاشوا وإياهم أجيالاً بالولاء والإخاء سينقلبون عليهم أعداء أشرار.

كان عدد المسيحيين في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر تسعمائة ألف نسمة موزعين على الشكل التالي:

270000 نسمة موارنة، 250000 نسمة من الروم الأرثوذكس، 50000 من الروم الكاثوليك، 35000 نسمة بقية الطوائف.

فكانت الفتن والفوضى منتشرة هنا وهناك ولأسباب عدة مباشرة وغير مباشرة ومنها للذكر لا للحصر:

- الجنود بأقسامهم الثلاثة: الإنكشارية، والقبيقول، وحرس الولاة، والخصومات التي كانت تحدث بينهم مما كان يسبب التعدي والإعتداء على المسيحيين بحجة وأخرى.

- التعصب الديني، كان سبباً كبيراً في إذكاء الفتن والمذابح وكانت حالة المسيحيين في تلك الفترة مزرية وضعيفة.

- أعمال السّخرة التي كانت تفرض على المسيحيين، كفرض الضرائب الثقيلة، وأموال الذميين التي كانت تجبى بطريقة الضمان وليس القانون، حيث كانت تفرض بحسب الهوى.

- منشور درويش باشا وآلي الشام إلى جماعة المسلمين والذي أصدره في 19 رمضان 1236هـ/ 1820م، وهذا نصّه: «صدر مرسومنا هذا المطاع إلى مشايخ واختيارية أهالي قرية صيدنايا المسلمين ليجروا بسحبه ويعتمدوه، فالبادي هو أن النصارى عندكم عمال يقلدوا الإسلام في ملابسهم وعمائمهم ونعالهم، وتعدّوا درجاتهم وخالفوها، فهذا

ضدّ رضانا ولا يعطى به رخصة. فبناء على ذلك أرسلنا لكم مرسومنا هذا لأجل أن تحذروهم وتُنذروهم من عواقب ذلك المراد حالاً وتنبهوا عليهم ألاّ يلبسوا ملبوس أزرق وعمامة سوداء، ونعال سود، ولا تدعوهم يقلدوا الإسلام بأدنى شيء لا نساءً ولا رجالاً، وإن بلغنا أن واحد تعدى الحدود المذكورة فما له لا يغني عن حاله، وخطيته في عنقه، ونطلع من حقكم وحقه. فبناء على ذلك أرسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعه فخر أقرانه جندي باشي أرقداشي محمد آغا، فبوصوله تعملوا بموجبه، وتتحاشوا مخالفته. أعلموه، واعتمدوه، والحذر من الخلاف في 19 رمضان عام 1236هـ».

وهكذا مرّت البلاد بالفوضى والهيجان وتتالت الأحداث من سيء إلى أسوأ، على أيام إبراهيم باشا، وشبلي العريان الدرزي الذي أخذ من المسيحيين سلاحهم بأوامر رسمية وتركهم عُزلاً إضافة إلى التقارير الكاذبة التي كانت ترفع بحق المسيحيين من قبل الولاة والقائم مقاميين والإختياريين يتهمون فيها المسيحيون ورؤساؤهم زوراً وبهتاناً بأفعال لم يفعلوها.

وهكذا استمرت الفوضى والإضطرابات منذ العام 1820، مروراً بالاعوام 1841، 1842، 1845 وصولاً إلى العام 1860 حيث تفجر العدوان الدرزي والإسلامي بحق القرى والمدن المسيحية بأطراف بلاد الشام بما فيها لبنان، فكانت المذابح المأساوية التي أودت بآلاف الناس الأبرياء، دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال والرؤساء، وهناك على سبيل الذكر لا الحصر:

1 – حادثة بيت مري الأولى في شهر نيسان حيث وردت تعليمات إلى خورشيد باشا عام 1860 عندما صدر من السلطان فرماناً بإعدام المسيحيين وقتلهم عن آخرهم والذي نفذه سعيد بك جنبلاط.

2 – مذبحة حاصبيا التي سالت فيها الدماء سيولاً وكان عدد القتلى 559 شاباً، 30 طفلاً لم يتجاوز عمرهم الخامسة و20 إمرأة و10 فتيات... 55 نسمة من أهالي قرية الكفير، 13 من أهالي راشيا الفخار، 8 من أهالي قرية أبو قمحه، كاهن واحد من قرية ميمس، و7 اشخاص من قرى أخرى... وكان بالتالي عدد القتلى المسيحيين 724 نسمة وعدد قتلى الدروز 40 نسمة.

3 – مذبحة راشيا: 270 ذكر داخل القلعة و231 خارجها بما مجموعه 501 نسمة.

4 – مذبحة دير القمر، وصيدا ونواحيها. إضافة إلى تخريب خمسين قرية حيث قتل فيها 1500 قتيل بينهم 25 راهباً مارونياً و15 راهباً وقسيساً كاثوليكياً مع عدد من كهنة الروم الأرثوذكس.

5 – مذبحة زحلة 4000 قتيل وبعلبك 500 قتيل من الرجال غير النساء والأطفال.

وهكذا حلّ ببيروت ودمشق التي قتل فيها اكثر من عشرة آلاف شخص وسائر الأنحاء. فشملت المذابح وأن بصورة أقلّ الأراضي المقدسة وشرق بلاد الأناضول، مناطق ماردين ودياربكر ونصيبين كما سنرى. وهنا يواجهنا بيت القصيد، الهجرة والرحيل للمسيحيين من مواطنهم إلى التغرّب حيثما حطت بهم الحدثان والزمان.

الهجرة وأسبابها

للهجرة أسبابها القوية، قديماً وحديثاً. القديمة هي كثرة الفتن والمذابح التي كانت تشنها الدولة العثمانية على المسيحيين منذ العام 1820 واستمرت إلى العام 1850، ثم امتدت إلى الأعوام 1893، 1894، 1897، وإنتهاء بالعام 1915 – 1923.

ومن الضروري التطرق الى المذابح التي أجرتها الدولة العثمانية، بالشعب المسيحي السرياني والأرمني، وخصوصاً في منطقة طورعبدين بمدنها وقراها بصورة موجزة جداً.

• **دياربكر**: في مطلع تشرين الثاني عام 1895 شبّت نيران الإضطهاد على المسيحيين، فهجموا على الكنائس والدور والأسواق ليقتلوا ويسلبوا، واستمروا بهذه الحالة، حتى 18 كانون الأول من العام نفسه.

• **السعدية**: كان أهلها أرمناً وسرياناً يبلغ عددهم 300 نسمة، ويوم الجمعة، غرّة تشرين الثاني 1895 وثب عليهم الأكراد وقتلوا الرجال والأطفال وسبوا النساء والبنات ونهبوا الدور والدكاكين، والذين انهزموا إلى الكنيسة، فقد نقب الأكراد سطحها وصبوا

عليهم زيت البترول وأحرقوهم قاطبة، ولم يبق من المسيحيين سوى ثلاثة رجال.

• **ميافرقين**: أهلها أرمن وسريان وبروتستانت، ثار الأكراد عليهم يوم الجمعة، غرّة تشرين الثاني وقتلوهم ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم ولم يفلت منهم سوى إثني عشر رجلاً وثلاث نساء. واحتشد في الكنيسة زهاء 700 نسمة، انقضّ عليهم الأكراد وأحرقوهم بزيت البترول.

• **قره باش**: شرقي دياربكر، أهلها كلهم سريان هجم عليهم الأكراد في اليوم الأول من تشرين الثاني 1895 وطفقوا ينهبون ويقتلون، ويستبيحون ويسبون مدة يومين كاملين.

• **قطربل**: قرية على شاطئ دجلة، يسكنها 300 عائلة مسيحية، هجم عليهم الأكراد غيلة وشرعوا ينهبون البيوت والدكاكين فانهزم المسيحيون إلى كنيسة مار توما فنقبوا سطحها وألقوا عليهم التبن وقلبوا فيه زيت البترول فاحترقوا جميعاً، وساعدهم الجند، فأطلقوا البنادق من سراي الحكومة، على من انهزم وقتلوه. وقس على هذه الفظائع بسائر قرى دياربكر كالكعبية، والجاروفية، وخان آقبوار، وارز أوغلي، وقوزان، وهولان، وقاضية وعنشا وصاتيا وصافيا، وبطركية، وقره كليسه، وقرطه، وقنقرظ، وقضا الأبشيرية، وقضالجيه، وقضاغرزان فإن الأكراد ثاروا بهم وقتلوهم واستولوا على أموالهم. أما نصارى علي بكار الكلدان والأرمن فإن وجهاء القرية احتالوا عليهم وأقنعوهم ليمضوا بهم إلى الولاية ويخلصوهم من العشائر، ولما خرجوا أوثقوهم جميعاً بحبل واحد وأودوا بحياتهم قبل وصولهم إلى البلد.

• **سويرك**: إن الحاج عثمان باشا وأخوته ضموا إليهم أحزابهم وهجموا على المسيحيين واعملوا فيهم السيوف والخناجر يومين كاملين فذبحوهم وقتلوهم، ولم يفلت منهم سوى أربع عوائل، وكان عدد القتلى 4000 ونيفاً.

• **الرُّها**: لما بلغ اليوم المعيّن للمذبحة احتشد الأرمن في كنيستهم الكبرى وقلاية مطرانهم ومدرستهم فغار عليهم المسلمون كأنهم من الوحوش وانزلوا بهم أشكال العذاب، وفتكوا بأرواحهم داخل الكنيسة وخارجها. ثم جمعوا الهشيم ووضعوه بين الأخشاب واقبسوه بالنار فالتهم من أفلت من النساء والأطفال.

• **تل الأرمن**: في 6 تشرين الثاني 1895 سار إليها رشيد آغا الكيكية، قائم مقام الحميدية، في جمع من الأكراد والعشائر وأرغم أن يدفعوا له أربعمائة ليرة ذهبية وحصاناً مطهماً... ثم شنّ الغارة هو وأصحابه على الأسواق ونهبوها وقصدوا الدور واستلبوها، فانهزم المسيحيون كعادتهم إلى الكنيسة ولحق بهم رشيد آغا وأصحابه من العشائر الأكراد وطفقوا يعرّونهم من ثيابهم ويقتلونهم، فانهزم منهم كثيرون وتفرقوا في القرى المجاورة.

• **الكولية أو القصور**: أهلها سريان يبلغون زهاء 300 بيت، وصباح يوم الجمعة هجم عليهم الأكراد وشرعوا ينهبون الدور ثم قتلوا خمسين مسيحياً، أما النساء والبنات فحفظوا منهن من استحسنوا ثم أحرقوا القرية.

• **بنابيل**: فعل بأهلها الأكراد والعرب المسلمون ما فعلوه بمسيحيي القصور من الجور والإغتصاب والقتل وذلك في التاسع من تشرين الثاني 1895.

• **قلعة مرا ودير الزعفران**: الجميع تحصنوا في الدير وهجم عليهم الجند وصوّبوا نحوهم الرصاص فقتلوا منهم زهاء سبعين شخصاً.

• **المنصورية**: هجم عليها الداشية، والأكراد يوم الثلاثاء 5 تشرين الثاني 1895، فحاصروها وقبضوا منهم نحو عشرين ألف غرش بصفة ديّة.

• **نصيبين**: يوم الأحد العاشر من تشرين الثاني 1895 ثار الأكراد وانقضوا على محلة المسيحيين ونهبوا الدور والدكاكين وقتلوا خمسة رجال، وتعجلوا على القرى المجاورة وقتلوا من المسيحيين مئة نسمة ونهبوا الأموال، وحرقوا أربع عشرة قرية وانصرفوا.

• **ويران شهر وديركه**: يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة، من المسيحيين، قصدها عشائر الأكراد في 3 تشرين الثاني 1895 وطافوا أسواقها وسلبوا أموال المسيحيين.

• **ماردين**: وحدث بها كما حدث بأخواتها من المدن والقرى السريانية والمسيحية من الفظائع والنهب والسلب وهجرة سكانها إلى سائر الأصقاع( ).

هذه كانت حال المسيحيين المشرقيين في لبنان وبلاد الشام وتركيا سيما في الاناضول ولم تكن احسن حالاً في العراق وفلسطين.

المسيحيون المشرقيون

لا بد من إلقاء نظرة سريعة على المسيحيين في الشرق الذين يعود وجودهم تاريخياً في دول المشرق بشكل أساسي في سورية ولبنان والعراق والأردن وفلسطين، إضافة إلى مصر. فيما دخلت المسيحية إلى جنوب السودان عبر البعثات التبشيرية، كما ذهب المسيحيون المشرقيون إلى الدول العربية الخليجية بقصد العمل، ويوجد بقية ضئيلة من المسيحيين في تركيا وإيران.

للأسف لا تتوفر إحصائيات رسمية أو شبه رسمية عن العدد الحقيقي للمسيحيين في دول المشرق ولا حتى إحصائيات عالمية دقيقة وفي جميع الأحوال فإن الأرقام تقريبية دائماً حيث لا نملك رقماً موحداً عن عدد المسيحيين وقد كان يقدر عددهم بـ14 مليوناً أو أكثر.

كما ان بلداً مثل لبنان لم يقم بإحصاء عدد سكانه منذ سنة 1932، بينما تقوم سورية بتنظيم إحصائيات بشكل دوري، أما في العراق فلا إحصاءات دقيقة لعدد من بقي من المسيحيين فيه بعد العدوان الاميركي عام 2003، ولا إلى أي مكان هاجر أغلبيتهم، رغم معرفتنا بأن أكبر نسبة منهم لا تزال في سورية. كل ما نعرف أن الأستاذ عبد الرّزاق الحسني يقول في كتابه «تاريخ العراق الحديث» أن عدد المسيحيين يصل إلى 10 في المئة عند قيام المملكة العراقية سنة 1921.

يقدر عدد المسيحيين في العالم العربي حوالي 12 – 15 مليون نسمة من أصل حوالى 330 مليوناً، لكن غالبيتهم الساحقة تتواجد في دول المشرق ويتوزعون في لبنان، سورية، العراق، الأردن، فلسطين ومصر، ويبلغ مجموع عدد السكان في هذه الدول حسب الإحصائيات الرسمية حوالي 150 مليون نسمة، أي أن معدلهم يساوي 8 في المئة من مجموع سكان المشرق، مع الإشارة إلى أن عدد سكان الدولة العبرية (إسرائيل) بلغ في آخر إحصاء رسمي حوالي 7،5 مليون نسمة 19 في المئة منهم من العرب وعدد

المسيحيين منهم 148 ألف نسمة أي ما يعادل 2،1 في المئة من مجموع السكان. كما بلغ مجموع المسيحيين في تركيا وإيران نحو ربع مليون، هاجر الكثيرون منهم في السنوات الأخيرة إلى مختلف دول العالم.

الهجرة المسيحية

تجمع الأدلة على ان هجرة المسيحيين الأولى كانت من لبنان بدأت لدى إندلاع الحرب الأهلية في العام (1860–1858)، لكنها بقيت، على الأغلب، ضمن المشرق حيث نزح بعضهم في هجرة داخلية، فاتجه قسم إلى مصر وآخرون إلى فلسطين مع اتجاه البعض نحو اميركا اللاتينية. وأول هجرة فلسطينية من مدينة بيت لحم إلى البرازيل كانت في العام 1880، واتسع نطاق الهجرة المشرقية إلى اميركا الجنوبية منذ العام 1892، وبلغت حداً كبيراً بين الأعوام 1903 – 1930 جراء المجاعة والحرب العالمية الأولى وما عرف بـ«سفربرلك» خلال أفول الدولة العثمانية. وهذا ما أصاب مسيحيو سورية والعراق إذ بدأت هجرتهم منذ العام 1918 بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى.

رصد مجلس الكنائس العالمي، ومجلس كنائس الشرق الأوسط، ومركز دراسات الوحدة العربية، والمؤتمر القومي العربي، وبعض الجامعات المسيحية الخاصة في لبنان أسباب الهجرة بشكل عام فكانت النسب على النحو التالي: (44 في المئة بداعي العمل، 30 في المئة بداعي تكوين عوائل مختلطة، 15 في المئة بداعي الدراسة في الخارج واختيار وطن بديل، 10 في المئة بداعي الخوف من التطرف، وأسباب أخرى ثانوية) ما يشير إلى أن الأسباب الدينية تأتي في أسفل السلم الترتيبي. إلا أنه في العراق كان نتيجة المعاملات السيئة التي كانت الحكومة تعامل بها المسيحيين كحق الوظائف واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية والثالثة فساءت أحوالهم وشرعوا بالهجرة الحقيقة.

أسباب الهجرة

– السبب الإقتصادي:

يدفع العامل المادي وانعدام فرص العمل، والفقر، وضعف البنية للدولة الحاضنة للشهادات العلمية والكفاءات والمهارات، وتدنّي فرص العمل ودخل الفرد والتخلف الإداري والمحسوبية بالشباب وحتى المتزوجين منهم إلى الهجرة التي تبدو حلاً لمواجهة المشكلات الإقتصادية والنفسية والفكرية للشباب، حيث تلبي طموحاتهم بحياة كريمة مكتفية، مالياً، كما تلبي نزوعاً نحو المغامرة وأعطاباً نفسية تتمثل بالخجل من العمل في وظائف أقلّ شأناً في الوطن الأم. لكن هذه الهجرة في أحد أوجهها تشي بأن الكثيرين ممن يبحثون عن جنسية ثانية، ليسوا فقراء وهم يسعون إليها انطلاقاً من نزعة تحوطية وتخوّف من المستقبل. واليوم يعتبر هذا العامل الأول في الهجرة والنزوح إلى مواطن العمل الكريم والعيشة الشريفة والهادئة وضمان المستقبل للأطفال الأحفاد والشيخوخة.

– ضعف الإنتماء (المواطنة):

ساهم التشويش التاريخي على الهوية وعدم تبلورها في المشرق عموماً، لا بل تشظيها بين عربية ولبنانية وسورية وفرعونية وفينيقية وسريانية وآرامية وآشورية وكلدانية وأرمينية وتركية ومسيحية متشرقة أو متغربة، وإسلامية متشعبة (سنية وشيعية) وما إلى ذلك في خفض منسوب الإنتماء. كما أن الكثيرين من الشباب مغترب في داخله، مهاجر في روحه، محبط من السياسة والفكر والإقتصاد والتقدم العلمي، ما يؤدي إلى تضارب الهوية داخله بين الجمعية منها والفردية الخاصة، فيصبح الوطن عنده جواز سفر وقاعة ترانزيت نحو مكان آخر يشرعن «الحلم» ولا يسأل عن الجذور، وبدلاً من المواجهة يلقي بفشله على وطنه ويرحل.

– التعصب الديني بثوب الأصولية:

إن التعصب الديني الذي كان بين الفترة والأخرى يطلّ على المسيحيين بصورة المواجهة نداً لند، إلا أنه في الفترة الأخيرة راح يلبس قناع الأصولية المقيت، وهي ناجمة عن قراءة أحادية للنصّ الديني، وهي أيضاً تكفيرية لمن لا يشاركها الإيديولوجيا نفسها ضمن الإسلام. وقد استفادت من دعم الغرب المطلق لإسرائيل في تجييش أنصار لها، وقسمت العالم إلى فريقين، واحد يقتصر على رؤيتها المجتزأة للنص القرآني، والمغلقة على الحوار في آن واحد. والآخر هو عدو في الزمان والمكان، وتطورت هذه الحركات متكئة على المفهوم الجهادي ضد الماركسية أولاً ومن ثم الغرب، واميركا منه تحديداً، وكانت ساحتها الأساسية، في أفغانستان قبل أن ينتقل بعضها إلى العراق. وبخاصة النموذج التكفيري، لأنه ينسحب على الكثير من المسلمين قبل المسيحيين، لكنها في واقع الحال خلّفت فجوة في العلاقات الإسلامية – المسيحية لأنها ساوت بين المسيحيين الوطنيين المشرقيين الذين هم أهل البلاد الأصليين، وبين بعض الكنائس الغربية التي تعتمد النص التوراتي أكثر من الإنجيل، معوّله على قراءة ساذجة واتهام المسيحيين بـ«الصليبية» وهو تفسير ينمّ على ضحالة ثقافتهم القرآنية، والحقد الدفين وإنهم دخلاء على العلاقات الإسلامية – المسيحية التاريخية، فهم في غالبيتهم جاءوا من مناطق باتت أحادية الإنتماء الديني منذ قرون طويلة، ومن مذاهب إتكأت على هذه الأحادية – التي تقارب التكفير. وقد ساهمت هذه الأفكار بشكل ضئيل جراء وجودها الفعلي خارج إطار المشرق جغرافياً في إثارة بعض القلق لدى المسيحيين وتحديداً في العراق بعد الإجتياح الاميركي له وضرب التكفيريين للبنى التحتية المادية والمعنوية للمسيحيين فيه ما جعل هجرة المسيحيين العراقيين أقرب إلى التهجير الناجم عن الخوف لا الهجرة. وعن الإضطهاد وليس التعصب، فأصبحوا عرضة للطرد والقتل والسلب للإستيلاء على دورهم وأموالهم والتخلص من منافساتهم.

الهجرة المسيحية.. هل هي سياسية؟

تبدو الهجرة هنا مبنية على تصور مسبق لتسهيل تهجير الأقوام التاريخية من المشرق وتأمين أماكن لجوء وعمل وجنسية لهم خارج إطارهم الطبيعي والجغرافي والتاريخي واللغوي والتراثي. ولذلك يتوجب الإضاءة على هجرة الآشوريين (الآثوريين) الذين يعدّون مع الكلدان أقدم حضارات وادي الرافدين، وقد اعتنقوا المسيحية في غرّة ظهورها، وتمّ تهجيرهم من شمال العراق بموجب إتفاق بين فرنسا وانكلترا اللتين كانتا منتدبتين على سورية والعراق.

في العام 1933، إثر تعاون بكر صدقي والأمير غازي، بغياب الملك فيصل الأول نقل آلاف الآثوريين إلى ضفاف نهر الخابور أحد روافد نهر الفرات بين الحسكة وبلدة رأس العين السورية، فبنوا وزرعوا وصارت منطقتهم تلقب بباريس الشرق لنظافتها وجمال جنائنها، وبقي عددهم حتى العام 1980 حوالي 60 ألف شخص.

وبقدرة عليم بالأمن والتهجير، فُتحت لهم كوى تأشيرات الدخول إلى اميركا واستراليا ونيوزيلندا، ولم يبق منهم هناك اليوم الا حوالي 6 آلاف آثوري، معظمهم من الشيوخ، وهذا ما حصل مع الكلدان. فمن بلدة تلكيف وحدها شمال العراق، هاجر أكثر من 25 ألف شخص، وبلغ عدد المهاجرين السريان من العراق والجزيرة السورية وهم أبناء هذا المشرق الأصليين، حفظة التراث العربي وروّاد الترجمة والطب حوالي مليون شخص، حيث فتحت لهم أبواب السويد والنرويج واستراليا واميركا وكندا، ونقل بعضهم لغته إليها ومدارسهم وكتبهم حتى أن مدينة القامشلي في شرق سورية التي كانت ذات أغلبية سريانية منذ مطلع القرن العشرين وحتى الستينات منه تكاد تكون خاوية منهم، وكذلك يصح القول على بلدات كلدانية في العراق حيث كانت حتى الخمسينات أكبر حواجز شمال العراق المسيحية، اليوم أصبحت أقلية، وهكذا يصح القول على بلدة برطلي وكرمليس وباخديدا والقوش وتلسقف وبالمنايا وباقوفا وعقرة وغيرها... ونجم عن هذه الهجرة التي تقارب

التهجير الممنهج تغيير الموقع الديموغرافي، حتى لتخال أن المطلوب قطع حلقة الإتصال بين مسيحيي سورية والعراق، وطيّ صفحة الأقوام التاريخية، ومحو آثارها من بلادها وتحويلها إلى بلاد الغرب، أو صورة متخفية، على نموذج الهنود الحمر... وما زال هناك مكتب في تركيا ولبنان يعملان حتى الآن على تأمين تأشيرات وطرائق لهجرة من تبقى من هؤلاء المسيحيين المشرقيين من بلادهم.

لكن لا يمكن أبداً قياس هجرة المسيحيين المشرقيين على قياس واحد، ففي الأردن وسورية لم يتعرض المسيحيون لأي ضغط سلطوي أو تعسف ديني، وفي لبنان كانت بدايات الهجرة كما في المشرق عامة ناجمة في أغلبها عن الواقع الإقتصادي السيء في ظل الحكم العثماني، لكنها تنامت مع الإنتداب الفرنسي، وتعاظمت خلال الحرب الأهلية (1975–1991) من دون أن ننسى أن العقل الغربي الأحادي الوجهة عرض على المسيحيين اللبنانيين مغادرة بلادهم عبر السفن. وهذا جزء من رؤية بائسة للحلول السياسية أو دعوة لإلحاق هؤلاء بالأقوام التاريخية التي هاجرت أو هُجّرت.

أما وضع المسيحيين في فلسطين فهو خاضع أيضاً لظروف الإحتلال الإسرائيلي، الذي يزعم أن القدس عاصمة أبدية للدولة الإسرائيلية، ويهدف إلى تفريغ المدينة من مسيحييها عبر مجموعة من الوسائل تتراوح بين الترغيب والترهيب والتضييق والتيئيس، فيما لعبت السياسة الغربية دوراً في تهجير المسيحيين العراقيين وتنامى الأمر في ظل الإحتلال الاميركي للعراق.

وساهم الوضع الإقتصادي المزري في مصر بهجرة الكفاءات الوطنية، وذكر تقرير حكومي مصري حديث أن نحو 700 ألف مواطن معظمهم من الشباب تقدموا بطلبات للهجرة خلال العام 2009، طلب 120 ألفاً منهم الهجرة إلى الولايات المتحدة، فيما الباقون على أوروبا واستراليا وكندا وتركيا، من بينهم 7000 يحملون درجة الدكتوراة و4000 حاصل على الماجستير في أقسام الهندسة، والكيمياء والفيزياء. وتشير أرقام وزارة القوى العاملة والهجرة ان عدد المصريين في الخارج يبلغ 6 ملايين و619 ألفاً.

لكن الهجرة الحقيقية للمسيحيين الأقباط بدأت بعد وصول الرئيس أنور السادات (1970-1981) إلى السلطة ونزاعه مع المرجعية الدينية المسيحية الكبرى (الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي رفضت الذهاب إلى القدس والتطبيع مع إسرائيل في ظل احتلالها للأراضي العربية، وهنا يلاحظ أيضاً أن تدهور وضع المسيحيين المشرقيين يبتدئ عندما يتدخل الغرب في الشؤون الداخلية لدول المشرق.

بقيت نسبة المسيحيين تتراوح بين 15 و20 في المئة من سكان أكثر من دولة مشرقية حتى الخمسينات من القرن الماضي فيما تقارب نسبتهم حالياً 8 في المئة من مجموع السكان العام في البلدان المشرقية حيث تتفاوت النسبة بين بلد وآخر.

في لبنان كانت نسبة المسيحيين فيه في إحصاء عام 1932 تبلغ 55 في المئة ثم انحدرت في العام 1975 مع بداية الحرب الأهلية إلى أكثر من 42 في المئة وتراجعت في العام 1994 إلى حوالي 30 في المئة، فيما أشار تقرير الكونغرس الاميركي صدر قبل حوالي ثلاثة اعوام إلى أن النسبة تعادل 28 في المئة.

وأفادت دراسة سابقة لوزارة المغتربين أن هجرة المسيحيين اللبنانيين بين الأعوام 1975-1990 بلغت 26 في المئة للموارنة، و25 في المئة للأرثوذكس، و19 في المئة للكاثوليك من دون الإشارة إلى هجرة الأرمن اللبنانيين بكثافة منذ العام 1975 إلى اميركا الشمالية، وتشير بعض الدراسات إلى وجود أكثر من 6 ملايين مهاجر لبناني بينهم 3.5 مليون من المسيحيين.

وفي سورية كانت نسبة المسيحيين في مطلع القرن العشرين تبلغ حوالي 32 في المئة من السكان، انحدرت في العام 1980 إلى 16.5 في المئة ووصلت حالياً إلى حوالي 10 في المئة فيما يبلغ عدد المسيحيين في الأردن حوالي 245 ألفاً حسب إحصاءات تعود للعام 2008 أي ما نسبته حوالي 4 في المئة من عدد السكان، لكن مصادر أخرى تشير إلى أن النسبة لا تتجاوز ال3 في المئة.

يبتدئ الوضع الكارثي للهجرة المسيحية في بلدين:

أولهما فلسطين التاريخية، فقبل الهجرة اليهودية المكثفة كان المسيحيون فيها يشكلون حوالي 20 في المئة من مجموع عدد السكان، ومع الحروب والضغوط ومغريات الهجرة تناقصوا بشكل مريع، فعشية النكبة عام 1948 هاجر 50 ألف مسيحي فلسطيني، ومن 400 ألف مسيحي مسجّل في فلسطين يوجد حوالي 50 ألف في الضفة الغربية، وحوالي 10 آلاف في القدس 3500 في قطاع غزة و130 ألفاً من فلسطينيي 1948، داخل ما يسمى الخط الأخضر، ومن تبقى منهم بات مهاجراً.

ففي مدينة القدس التي كانت نسبة المسيحيين فيها عام 1922 تصل إلى 53 في المئة باتت اليوم 2 في المئة من عدد السكان. أما في بيت لحم مهد السيد المسيح فقد كانت نسبتهم 85 في المئة العام 1948 وهي لا تتعدى حالياً 12 في المئة.

البلد الثاني هو العراق، فحسب إحصاء يعود للعام 1977 بلغ عدد المسيحيين فيه 2 مليون و48 ألف نسمة تراجعوا إلى 1 مليون و250 ألف نسمة عام 1987، وبعد حرب الخليج الأولى والحصار هاجر قسم كبير منهم، وخصوصاً من شماله، ومنذ الإجتياح الاميركي والغربي في العام 2003 تناقص عدد المسيحيين إلى حوالي 700 ألف نسمة، بنسبة 3 في المئة من عدد السكان الذين كان عددهم في ذلك الوقت حوالي 25 مليوناً، نزح منهم بعد الإعتداءات التي تمت تحت سمع ونظر قوات التحالف الغربي أكثر من 350 ألفاً إلى سورية والأردن، قبل أن تنتقل عائلات كثيرة إلى اميركا وكندا، عبر هجرة مدروسة أو لجوء إنساني.

وفي تركيا التي كان عدد المسيحيين فيها عام 1920 يقارب مليوني نسمة أي ما نسبته 15 في المئة من عدد السكان، باتوا حالياً 70 ألفاً بنسبة 1 في المئة من إجمالي عدد الأتراك.

أما في إيران فقد كان عدد المسيحيين عشية الثورة الإسلامية عام 1979 حوالي 300 ألف نسمة هبطوا حالياً إلى 100 ألف، مع أن عدد الإيرانيين تضاعف منذ ذلك الوقت.

تجدر الإشارة إلى أن ثقافة خفض وتحديد النسل عند المسيحيين وتراكمها منذ أكثر من نصف قرن ساهم فعلياً في تدني عديدهم في المشرق – فأغلب العائلات المسيحية تكتفي بولدين أو ثلاثة في أحسن الأحوال، ومقارنة هذه النسبة مع إرتفاع عديد العائلات المسلمة، في المشرق يوضح لنا أن هذا الأمر يسهم عملياً في تدهور نسبتهم وتراجعها في المنطقة.

نتائج الهجرة

ساهم المسيحيون المشرقيون تاريخياً في إقامة توازن إجتماعي ثقافي معرفي في بلادهم. فخلال الألفي سنة ونيف الماضية إحتلوا موقعاً رئيساً في بناء وتطوير الحضارة العربية لغة ومعماراً وثقافة وإبداعاً وإقتصاداً، ولهذا يصحّ أن نقول أن المسيحيين هم أعمدة الحضارة العربية الإسلامية، لما اضافوا وابدعوا في ميدان الفكر والمعرفة سيما في ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية وعلى رأسهم السريان لا كمكوّن منعزل في المجتمع، بل كعنصر أساسي فاعل في العمل الإنساني والمعرفي والعملي. وعبر تشابك المصالح في المجتمع كانوا يقربون بين مكوّناته في العادات والتقاليد والتراحم، وشكلوا جسراً للتواصل مع المنتج المعرفي في الغرب، مساهمين في خفض منسوب النظرة السوداوية والسيئة التي انتشرت فيه بعد الحروب الصليبية. ويرى مستشرقون مثل نورمان دانييل ومالفيزي وليفي ديللافيدا أن فضلاً كبيراً يعود للمسيحيين العمل في تغيير الصورة النمطية التي رسمها الغرب للإسلام، ووقف السُّباب والتعابير المسيئة التي كان يطلقها الأوروبيون على المسلمين وليس من باب المصادفة أن أول ترجمة يعتد بها للقرآن إلى اللاتينية طبعت في العام 1668 هي للإيطالي لوبجي ماراتشي الذي كان قد تعلم العربية والسريانية على يد راهب مسيحي سرياني في روما.

وساهم المسيحيون بفعالية قوية منذ مطلع القرن الماضي بضخ روح التحديث

السياسي، إنطلاقاً من وحدة المجتمع المصلحية والفكرية وحتى الدينية أمام الأخطار الخارجية، فالمسيحيون أول من أطلق كلمة القومية العربية على يد نجيب عازوري، وأول من أطلق مصطلح الوطن العربي بصحيفة خليل غانم في فرنسا التي سمّاها بالوطن العربي لذلك تبدو الهجرة في حال استمرارها عاملاً يفتك بالمجتمعات المشرقية وهي ساهمت في ما يلي:

– قتل هوية المهاجر:

لم تكن الهجرة قدراً محتوماً في أحيان كثيرة، بل كانت خياراً، وهاجساً فردياً للبعض، ولذلك فإنه لا يجوز النظر بعين واحدة إلى أصحاب هذين الخيارين. وللحقيقة فقد حاول عدد كبير من المهاجرين الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم وكنيستهم في المهجر، ضمن جهد مضنٍ للحفاظ على الهوية الأصلية، لكن طبيعة الحياة في المهاجر واختلاف طرق التفكير والثقافة والعادات والتقاليد ساهم في خلخلة الهوية المشرقية، إلى حدّ كبير، وكلما طعن الوقت بالمهاجر وعائلته كلما أمعنت هويته الأصلية ابتعاداً لأن الثقافة السائدة في الغرب تقدّس الفرد، فيما العائلة والتكافل الإجتماعي من صفات الثقافة المشرقية ولذلك لا يمكن للمهاجر أن يعيش في «غيتو» منعزل على النموذج اليهودي قديماً، لأنه مضطر للإنخراط في العمل والمجتمع، وتحديداً في ظل العولمة، ولأن تزجّ عائلته في الثقافة السائدة. فالحقيقة «لم يبق غرب مسيحي، فهناك فتور كبير في التدين لدى الغربيين. الغرب هو علماني بالدرجة الأولى ولا معنى لمقارنة شرق إسلامي بغرب مسيحي».

إن المجموعات المشرقية قد تبدلت، ولذلك نرى في المهجر أننا أمام الجيل الثالث والرابع وقد فقدت اللغة كوسيلة، تواصل واقتصرت العلاقة مع الوطن الأم على نوع من الذكريات التي يرويها الشيوخ ولهذا تبدو هوية المهاجر تعاني من شرخ كبير، وهذا من طبيعة المجتمع البشري، وفي يوم ما سيكون المهاجر المشرقي واحداً من

نسيج إجتماعي متنوع في البلد الذي هاجر إليه، أي أن الكثيرين من المهاجرين حالياً يعانون من «هوية قلقة» قبل احتضار الهوية الأصلية. يعيش في هويتين متميزتين وثقافتين متباينتين، وشخصيتين لا يستطيع توحيدها فهما يتجاذبانه بين القديم والجديد، بين العتيق والحداثة.

– تهدّم روابط المجتمع المشرقي:

تظهر الأرقام أن الهجرة تشكل خطراً على توازن المجتمع ديموغرافياً، وهذا الخطر لا ينسحب على المسيحيين وحدهم جراء نقص عددهم المضطرد إنما على المسلمين ما يؤدي مع الوقت إلى تغلغل ثقافة الإنعزال والإبتعاد، وبالتالي تشكيل حركات طارئة أو إنفصالية أو استعلائية، وهي موجودة لدى البعض جراء شعور واهم وخلّجي بالتفوق الغربي. بل في الواقع يقع الخطر على المقيم، والهجرة تضعف المقيم أيّاً يكن إنتماؤه، فهجرة الأدمغة والمثقفين والأيدي المدربة تنعكس على المجتمع بكل مكوناته وخصوصاً في ظل تنامي اقتصاد المعرفة، ما يسهم في تراجع التقدم الإقتصادي وضرب مبدأ الوحدة التاريخية، ولأن المشرق مكوّن من نموذج فسيفسائي إثني وطائفي ومذهبي. فإنه سيصل في خاتمة الأمر إلى دَرْك الإضطرابات الإجتماعية والسياسية والفوضى.

– تفكك المسيحية المشرقية:

لنبدأ من الأسئلة: هل من ميلاد السيد المسيح ورسالته بلا بيت لحم والناصرة وأورشليم؟ وهل من مسيحية من دون الرسل والإنجيل وبولس الرسول ودمشق وانطاكية والإسكندرية؟ وهل من مسيحية دون كلدان وسريان وأثوريين وموارنة؟ وهل من تراث دون بابل وسومر واكد؟، وهل من حضارة دون بغداد ونينوي والموصل؟، هل من مسيحية من

دون الرها وماردين ونصيبين، ومن دون باخديدا والقوش وتلكيف وحلب والقامشلي؟... إلخ.

صحيح، إن الإيمان علاقة بين المخلوق والخالق وليس لفظة الدين توحدهما، لكن هذه العلاقة تمارس على الأرض بالصَّلاة التي أرى أنها الصِلات (بالكسر) أي العلاقات الخفية السرية، وتحوّلت مع الزمن إلى عادات وتقاليد وطقوس نحييها داخل أمكنة محددة، وإلا ما نفع الكنائس الخالية من المصلين، والأديرة الخاوية من الرهبان، وعلى من يلقى رجال الدين عظاتهم؟ لأن الكنيسة ليست الجدران والمذابح إنما هي جماعة المؤمنين بهياكلهم المعدّة للروح القدس.

إن خيار الهجرة يسقط المهاجر في حيرة واضحة، فالغرب ليس كله مسيحياً بمعنى التدين، لا بل أن بعضه ينفي المسيحية من دستوره، فيما تنتشر في بلدان كثيرة منه بدع وشيع تقول أنها مسيحية، لكنها لا تقارب الكثلكة، ولا الأرثوذكسية بشيء، لا بل هي أقرب إلى الشيع التوراتية والمسيحية المتصهينة البحتة مع الإعتراف أن الإيمان في الغرب متروك للحرية الفردية. ومن هنا تبدو الهجرة انسلاخاً عن الأصل والتقاليد والعادات وحتى الموسيقى والتراتيل الدينية والتراث المدني نحو أصول من نوع آخر. يفاجئ المهاجر بما يميله من حالة التسيّب والإنفلات الخلقي اللاموزون وماكان يمارسه في بلده من التشبث والإرتباط.

من الواجب القول أن أغلب المسيحيين المشرقيين يجاهدون في سبيل عدم التخلي عن إيمانهم في المهاجر، لكنهم لن يستطيعوا المحافظة على مشرقيتهم وخصوصيتها في حمأة العمل والبحث عن القوت وفي مستوجبات الإنخراط في النظام الإجتماعي للبلدان الجديدة، وهذا يدلّ أيضاً على أنهم يواجهون صعوبات جمّة وتحديات في الوطن البديل يمكن أن تعادل التحديات التي ينبغي مواجهتها لبناء الوطن الأم. فالإنسان في خضم المواجهة يشعر بكينونته بينما صيرورته تضيع وتفنى في الهدوء اللاإرادي وقد تموت من السعي والركض وراء المجهول.

من المسؤول؟

منذ سنوات طويلة رفع بعض الحريصين على مستقبل المنطقة أصواتهم محذرين من عواقب الهجرة على البيئة المشرقية عموماً والمسيحيون خصوصاً. لكن هذه الأصوات لم تؤخر مهاجراً حتى الساعة عن موعد إقلاع طائرته، ولم تُعِد مغترباً إلى وطنه، ما يعني وجود خلل في الممارسة والمخاطبة والتوجه وفي آليات العمل، لا بل في التدريس والتعليم والتوجيه، وإن الرسالة لم تصل إلى عموم الناس، ولذلك لا بد من ممارسة نقد حقيقي لوسائل العمل وطريقة الخطاب وآلية التوجه. قبل أن نعود لنتوجه إلى المواطن المسيحي طالبين منه البقاء في أرضه والتشبث بمشرقيته، وهنا تقع المسؤوليات على:

1 – الدولة:

إنطلاقاً من ان الدولة لكل أبنائها، وإن السلطة مستمدة من الشعب، فإن القانون يجب أن يطبّق على جميع الناس في الحقوق والواجبات. وعلى الدول أن تؤمّن فرص العمل للشباب كي يبقوا في أرضهم حسب مبدأ تكافؤ الفرص، لا بناءً على المحسوبيات والإستزلام والطائفية والفساد الذي يعمّ دول المنطقة، وفي المكان الذي ترى فيه الدولة أن مكوّناً وازناً من شعبها يدق أبواب السفارات طالباً الهجرة عليها تقصّي الأمر وإلغاء أسبابه، لا أن تدفن رأسها في الرمال وتمارس سياسة النعامة، فالمشرق عموماً مكوّن من موزاييك طائفي وإثني، وفقدان واحد منه سوف يفقده غناه وتنوّعه وفرادته ورسالته ويضعف إقتصاده ويخلخل بنيانه الإجتماعي، لذلك مطلوب من الجهات السياسية الحاكمة، في المشرق الإلتفات إلى موضوع الهجرة المسيحية، ليس من منظور ديني فقط، بل من منظور وطني ترى فيه ملامح أزمة تلوح أشرعتها في الأفق، وعليها المبادرة وطنياً للجم وإزالة الأسباب التي تجعل الشباب المسيحي يهاجر والمطلوب من سورية والأردن حالياً إحتضان المسيحيين العراقيين مؤقتاً وتمكينهم، لا أن تكونا محطة عبور لهم – وكذلك لبنان – إلى مغترب بعيد، والسعي لإعادتهم إلى ديارهم، ففي حال هجرة المسيحيين من العراق، لن تحلّ المشكلة بل ستطلّ أخرى مذهبية أو إثنية، سنية – شيعية، أو عربية –كردية، لأن الفتنة تجرّ الفتنة.

وما من سبيل لبقاء الناس في أرضهم إلا الشعور بإن الوطن لجميع أبنائه، وبإن فرص الحياة الحرّة الكريمة مفتوحة أمامهم على مصراعيها، وهذا لا يتمّ إلا بالحرية والتنمية، كما على الدول إنتاج كتب تاريخ ومناهج تربوية، تظهر ما يجمع بين مكوّناتها ودياناتهم ليترعرع عليها الجيل الجديد. فكم هو جميل أن يكون بين كافة الطلبة كتاباً موحّداً في التربية الدينية أو التربية الوطنية أو تاريخ الأمة والبلاد لبناء الدولة الديموقراطية التي تعطي للشعب دوره الريادي في تأصيل المواطنة الصالحة والعمل على رقي الوطن والشعب والأمة.

2 – الكنيسة:

قال بطاركة المشرق الكاثوليك في رسالتهم بمناسبة إنعقاد إجتماعهم الأول في لبنان عام 1991 إن «آفة الهجرة الخطيرة تنخر جسمنا وتعطل مسيرتنا، وتحرم كنائسنا وأوطاننا من عطائنا، وإسهامنا وتعاوننا. إننا بحاجة إلى أوطاننا، لأنها بيئة دعوتنا ورسالتنا، وأوطاننا بحاجة إلينا كي نثريها بأصالة حضورنا النشط والعامل». وتتولى الإجتماعات وتكثر الأقوال والكنيسة واقفة لا تبدي حركة خطوة واحدة إلا لمجرد التصريحات والتقوّلات.

من الواضح أن الكنائس المشرقية جميعها، وهي ليست كلها كاثوليكية، تتحمل بطريقة أو بأخرى وزر الهجرة، فالخطاب الكنسي الإنشائي والعمل الرعوي التقليدي والإجتماعي الذي ينضح بالفولوكلورية والتربوي القائم على معادلة الربح في المدارس، والخطاب القائم على الكثير من التخويف من الآخر، وعدم تثبيت مفهوم الإنتماء التاريخي والمجتمعي، ساهم إلى حد كبير في تعميق ظاهره هجرة المسيحيين فالكنيسة ليست برجاً عاجياً للآباء والرهبان، وليست ترفاً مضافاً وتلاوة صلوات وبخور، بل هي إنغماس في المجتمع لمقاربة همومه. كما أن السيد المسيح يقارب هموم الناس. وكما فعل عندما اقتضى الأمر في طرد الصيارفة من الهيكل عندما لوّح بالسوط. وكما فعل القديسون والنساك في شفاء الروح والجسد، لا بل في صدّ الهجمات التي تتعرض لها المجتمعات فالكثيرون من آباء الكنيسة وقفوا بوجه الحاكم المستبد وقضوا دفاعاً عن إيمانهم بالعدالة. فعلى الكنيسة برجالها أن تنزل إلى الشارع لترى وتلمس كيف يعيش أبناؤها: العامل والفلاح، الكاسب والموظف، أن يعيشوا مثلهم.

من جهة أخرى يقع على رجال الكنيسة العمل على تطوير الفكر الذي يذيعونه بين المؤمنين كي يعرفوا أنفسهم وأنهم يرثون حقاً مجد السلام والمحبة على هذه الأرض التي مشى عليها السيد المسيح وتصليب فكرة الإيمان بأنهم ملح الأرض، حتى لا تتحول الكنائس إلى ملاجئ للمسنين، دافعين بالشباب إلى الإنخراط بالشأن العام، لا الإنسحاب الإنهزامي من الحضور الفاعل في المجتمع، كشهود على الحق الذي يحررهم وكأصحاب إنتماء إجتماعي وطني وإيماني، فالإنتماء عمل تربوي وثقافي يحتاج إلى جهد كي يستشري في المجتمع. فالدين لله والوطن للجميع.

ليس الأمر صعباً إذا ما تمّ تجديد الخطاب، وساهمت الكنيسة في إيجاد وسائل تجذير المؤمنين في أرضهم، لكن الكنائس المشرقية التي تعاني كل واحدة منها من التغريد في سربها الخاص، رغم الكلام المعسول العلني، لن يستقيم لها العمل، فيما مدارسها تبغي الربحية، وكذلك مستشفياتها، وفيما أوقافها هي وقف للكنيسة وليس لخدمة مجتمعها، وهي لا تزال مختلفة حتى على تحديد يوم موحد لقيامة السيد المسيح. فلا بد إذن من الوحدة المسيحية المشرقية كاملة، لتصير قوة لإحياء الإيمان بالله والمجتمع والوطن.

ذكر بطاركة الشرق الكاثوليك في ختام مؤتمرهم السادس عشر في خريف العام 2006 أن المسيحيين في هذه البلاد «شرقيو الإنتماء والمواطنة وملتزمون قضايا بلدانهم» ولذلك لا بدّ للكنيسة من العمل على تعميق مفهوم مشرقيتها وزجّ أبنائها داخل حنايا مجتمعاتهم ليساهموا في العمل الوطني والإجتماعي والفكر والتربوي، وإن تساعدهم بشتى السبل على البقاء في أرض آبائهم وأجدادهم ليساهموا في تطوير إنتمائهم الديني والوطني والإجتماعي بدل تحوّلهم إلى متسولي تأشيرات على أبواب السفارات، فيقسّمون أراضي الأوقاف إلى الشباب والعمل على تزويجهم ورفع ضرائب الأسرار عنهم كالمعمودية والزواج والموتى، وتجذير الجذور في الأرض، والعمل الحثيث على تأسيس المصانع الصغيرة والمعامل المهنية والحرفية لإقتران الحاضر بالماضي، والعمل على تحسينها لتنشيط سوقها والتعاون الكامل بين الإكليروس والعلمانيين في الحياة العامة كنسياً وإجتماعياً. وليس فقط مناداة الفتيات للجوقات وقراءة رسائل مار بولس دون الشماسة، فقد تولّوا دور الشماس الرجولي خلافاً لقول مار بولس «ممنوع على المرأة الكلام في الكنيسة».

3 – الفاتيكان:

وَصَفَتْ الوثيقة التي قدّمها قداسة البابا بينيديكتوس السادس عشر أثناء زيارته لقبرص عام 2010 المسيحيين المشرقيين، مع تحفظنا على استخدام مصطلح «مسيحي الشرق الأوسط» لأنه مصطلح سياسي، بأنهم «مواطنون أصليون ينتمون حقاً وقانوناً إلى النسيج الإجتماعي وإلى الهوية ذاتها لبلادهم الخاصة» وهذا توصيف حقيقي، لكن الوثيقة التي أشارت إلى أن المسلمين زاوجوا بين الغرب والمسيحية، ذكرت أن الغرب له تقليد مسيحي وإن حكوماته علمانية ولا تستلهم السياسة من الإيمان المسيحي بل كثيراً ما تحارب بعض تعبيراته.

وهنا يقع على الكنيسة الغربية بشخص البابا ودولة الفاتيكان دور هام في تثقيف المؤمنين الغربيين بهذا الشأن، في ظل حملة شعواء تقودها تحت جنح الظلام وفي العلن، قوى ووسائل إعلام لشيطنة الإسلام، مما ينعكس سلباً على المجتمعات الأصلية التي تحدث عنها قداسة البابا.

وعليه تكون مسؤولية الفاتيكان أقوى وأشمل. اذ يجب العمل بكافة السبل والإتجاهات لحفظ كنيسة المشرق الكاثوليكية في العراق والمطالبة المباشرة من هيئة الأمم ومجلس الأمن بحماية الكنيسة المشرقية وكذلك في فلسطين ولبنان وغيرها من البلدان.

وإنطلاقاً من هذه المعطيات تقع على الكنيسة الكاثوليكية نسبة عالية من المسؤولية تتمثل في حشد الرأي العالمي الكاثوليكي لمساعدة المسيحيين المشرقيين على البقاء في أرضهم، وتوصيف حالتهم بشكل واقعي، كي لا تصبح الأرض المقدسة أولاً أحادية الدين حسبما تريد إسرائيل التي تسعى علناً إلى يهودية الدولة، وكي لا يؤخذ الأمر في منتهاه إلى صراع ديني بين الإسلام والمسيحية، فيدخل العالم في حروب صليبية جديدة مبنية على نظريات وهمية تدور حول صراع الحضارات ونهاية التاريخ، فما من أحد يعلم متى تحل الدينونة التي يؤمن بها المسيحي والمسلم معاً. بل ليعملا معاً لإنقاذ الإنسان المشرقي من براثن الإنسان الغربي لأن كل بيت ينقسم على ذاته يسقط ويكون سقوطه عظيماً.

4 – سياسة المجتمع المدني:

هناك أنواع من الأحزاب السياسية في المشرق، منها ما هو في السلطة، ومنها ما هو في المعارضة، ومنها سلطات أنشأت أحزاباً على قياسها، منها العلماني، ومنها أحزاب تتستّر بالدين، ومنها أحزاب دينية وطائفية، وعلى الجميع يترتب سؤال كبير حول تحديد هوية المواطنة والسعي بعدم فصل مكوّنات المجتمع عن بعضها. هذه هي الدولة السياسية بأحزابها وآرائها سلباً وإيجاباً.

في الواقع، أدّى إنحدار حضور الأحزاب العلمانية والوطنية، والقومية إلى تقدّم الأحزاب الدينية، علماً إن مؤسس بعضها مسيحيون مشرقيون وساهم في ذلك أن الأحزاب التي وصلت إلى السلطة، لم تتقدم كثيراً في الرفاه الإجتماعي أو في الصراع مع إسرائيل. لكن في مطلق الأحوال على هذه الأحزاب جميعاً التأكيد على روحية الإنتماء الوطني، لأن المشرق يتشكل من مجموعة كبرى من الأقليات، وعملياً لا أكثريات ساحقة فيه، وإن اقتضى الأمر دفع المحازبين إلى عدم الهجرة، والمساهمة في تأمين مورد حياة لهم، وعلى الأحزاب الدينية الإسلامية، تنفيذ تعاليم القرآن الكريم تجاه أبناء بلادهم المسيحيين، فيما على الأحزاب المسيحية الإقلاع عن التقوقع والإنعزال وتقديس المعطى الغربي، كما على الجمعيات الأهلية، المساهمة في تعزيز فكرة الإنتماء والتشبث بالوطن. أي أن يكون هناك تزاوج بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني لبناء الوطن وإنقاذ الإنسان كل إنسان دون تمييز عنصري وقومي ومذهبي.

المسلمون والعلاقة مع المسيحيين

منذ عشرون عاماً وأنا أدرّس مادة الإسلاميات بكافة فروعها في المعاهد الدينية المسيحية وعليه وجدت نقصاً في تبادل الثقافة الدينية بين المسلمين والمسيحيين فكل يجهل الآخر أو يتجاهله وهذا مرض إجتماعي خطير فلا بد من التبادل الثقافي، ولا بد من التثقيف كل بما للآخر من أفكار وطروحات وثوابت ومتحركات أي توحيد الشعور الديني ضد ما يحيط بالإسلام والمسيحية من مخاطر، فلو إطلع المسلمون ماذا عند المسيحيين

وبالعكس لإرتقى الجميع إلى الأخلاقية المتبادلة. جاء في القرآن ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم...﴾ [آل عمران:54].

إن الإسلام الحقيقي هو الإسلام الذي يدعو إلى «كلمة سواء» لا الإسلام الذي توسل خطاباً سياسياً تكفيرياً إجتزأ من القرآن والحديث ما شاء له ليحاول فرض تطرّفه وانغلاقه على المسلمين قبل المسيحيين، ولذلك يتحمّل المسلمون المشرقيون عبء وضع الإسلام في إطاره الصحيح، إطار الدعوة التي لا تفرّق بين الأنبياء والرسل، القائمة على احترام العقائد، ﴿يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾ [النساء:136].

ويتابع القرآن الكريم مطالباً المؤمنين: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون﴾ [البقرة:-136 آل عمران: 84] و﴿قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ [المائدة:68]. فالله هو من أراد أن لا يجعل الناس على دين واحد، لا بل ترك ملايين البشر من دون كتاب أو وحي ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة﴾ [هود:118]، وهو الذي يقول ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد﴾ [الحج:17] فحتى الذين أشركوا يفصل الله بهم في الساعة فليس من أحد ديّان إلا هو، ومن هنا لا مكان للتكفيريين في الإسلام، فكيف إذا كان هؤلاء يكفّرون المسيحيين ويصفونهم بالصليبيين والكفّار والمشركين؟

في القرآن مائة وأربع عشرة سورة ورد فيها السيد المسيح وفي التفصيل وردت كلمة «المسيح» في القرآن 11 مرة، وكلمة «عيسى» 25 مرة، فيما وردت كلمة «مريم» 34 مرة، حيث ميّز القرآن المسيح بصفات عظيمة لم يعطها لنبي آخر، فهو المولود من عذراء ﴿قالت إنّي يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا﴾ [مريم:20]، وهو رسول الله وكلمته... ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته...﴾ [النساء:171]، ﴿يا مريم إن الله يُبشّرك بكلمة منه إسمه المسيح عيسى ابن مريم...﴾ [آل عمران: 45]، وهو من روح الله ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾

[النساء: 171]، وهو المعصوم الوجيه المقرّب ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ [آل عمران:45]، وهو العجائبي ﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طير بإذن الله﴾ [آل عمران:49]، ﴿وأبرئ الأكمة والأبرص...﴾ [آل عمران:49]، والعارف بالأسرار ﴿وانبئكم بما تأكلون وما تدخّرون في بيوتكم﴾ [آل عمران: 49]، ويحيي الموتى ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ [آل عمران: 49]، وهو الذي يقوم من بين الأموات ﴿والسلام عليّ يوم ولدتُّ ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾ [مريم: 33].

لا بل، كرّم القرآن المسيحيين الذين آمنوا بعيسى ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [آل عمران:55]، وفي سورة المائدة التي هي سورة مدنية ومن أواخر السور التي نزلت في القرآن يمكن إضافتها إلى سورتي مريم وآل عمران، لأنها تضم بين آياتها كيفية المعاملة مع أهل الكتاب، إجمالاً لما ورد آنفاً: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة - والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ [المائدة: 110].

لم يكتف القرآن بتكريم العذراء، مريم بسورة عدد آياتها 98 بل اتبعها بسورة آل عمران التي تكرّم آلها وعدد آياتها 200. ويكفي أنها المرأة الوحيدة المذكورة في القرآن وهي التي اصطفاها الله على نساء العالمين جميعاً ﴿وإذ قالت الملائكة، يا مريم إن الله إصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ [آل عمران: 42]، ويقابلها في الإنجيل ﴿مباركة إنت في النساء﴾ [لوقا: 28]، وجعلها مع ابنها المسيح آية، ﴿وَجَعَلْنَا ابن مريم وأمّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ [المؤمنون: 50].

فالبتول مريم هي الإسم الأنثوي الوحيد الذي ذكره القرآن وكرّمها المسلمون في كل بلد حلّوا فيه، من نجران إلى الحيرة وطرطوس وانطاكية، ولم يقربوا الكنيسة المريمية، معقد صلاة ورسامة قبيلتي تغلب وغسّان في دمشق. وأول كنيسة شيّدت على إسم مريم كانت في المدينة (يثرب)، وشادها المسيحيون العرب وما زال السريان يذكرونها في تقويمهم كل عام، أسست عام 518 في حزيران.

وكلمة مريم هي بالآرامية صفة تعني «الطاهرة» أو السيدة. وإسم مريم أيضاً يعني «سيدة البحر» أو سيدة المياه ثم صارت إسماً علماً يعني السيدة وكلمة الله بالآرامية والسريانية «موريو» والسيد «مار» و«موران» سيدنا وهي تمرّ إنجيليا في مفاصل البشارة والولادة وعرس قانا الجليل والتبشير الأول والجلجلة، وهذا دليل إضافي على أن الإسلام يقترب من المسيحية إلى حدّ كبير انطلاقاً من المسيح ومريم. وما إعلان يوم بشارة مريم في لبنان يوماً وطنياً إلا دليل على هذا التآخي وهذه المسؤولية.

وحتى القسوس والرهبان: ﴿لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا النصارى ذلك بأن منهم قسيس ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ [المائدة:82]، مع إحترام كبير للإنجيل الذي أتى المسيح من عند الله ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ [المائدة: 46]، حتى أن الله طلب من رسوله محمد ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ [سورة يونس: 94].

وفي علاقة محمد الرسول العربي بأهل الكتاب، وبالمسيحيين منهم على وجه الخصوص عبرة، وخارطة طريق للمسلمين في علاقتهم بالمسيحيين، فبعيداً عن الأحاديث ذات الطابع الإشكالي نأخذ ما ورد في المسانيد والصحاح عن محمد «إني لمعاقب من يجحف نصراني ذمي أو يفرض عليه واجبات مرهقة».

طبعاً خارطة العلاقة واضحة في التعامل منذ أول يوم للمسلمين في المشرق بين مجموعة فاتحة والمسيحيين فيه فعهد محمد لأساقفة نجران تقول: «لا يغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ولا حبيس من صومعته ولا سايح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل شيء من بناء كنائسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين فمن فعل شيء من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله ولا يحمل على الرهبان والأساقفة، ولا من يتعبد جزية ولا غرامة، وأنا أحفظ ذمتهم أين ما كانوا من برّ أو بحر في المشرق والمغرب والشمال والجنوب وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه...».

وهكذا فعل مع أساقفة آخرين حيث منح محمد عهداً للمسيحيين ينطوي على المسالمة والمصالحة واحترام الشعائر الدينية مع الحقوق والواجبات، وهكذا فعل الخلفاء الراشدون والقادة...

إن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين لا تقوم إلا على الحوار ولا تستقيم إلا به، حسب ما يوحي القرآن به: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ [العنكبوت:46].

وهنا يقع على عاتق المسلمين المشرقيين عبء العمل بجدّ على تعميم فهم الأجيال الطالعة لدور المسيح والمسيحيين في النص القرآني، وفي الحياة المشتركة للوصول إلى «كلمة سواء» عبر نشر ثقافة ما يجمع أبناء الوطن، فليس بالقليل أن الكثيرين من المسلمين حالياً هم في جذورهم من المسيحيين، كما إن الكثيرين من المسيحيين المشرقيين كانوا من ديانات ما قبل التوحيد، لكن «إلهنا وإلهكم واحد» وفي حال عدم نشر هذه الثقافة، فإن المسلمين قد يجدون أنفسهم ذات يوم يحاربون قوى تقتنع بأنهم هم من يريدون جعل العالم وحيد النظرة، وإن جسر الإسلام الحقيقي إلى الكون هو المسيحية المشرقية التي تعرفه بحكم القرابة والتاريخ والبيت الواحد.

على هامش السينودوس:

عقد في الفاتيكان سينودوس، أو مجمع حول مسيحيي الشرق أو بالأحرى حول الوجود المسيحي في المشرق، وهنا تترادف الأسئلة وتتناقض في ماهية السينودوس وانعقاده في هذه الفترة بالذات فترة المفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية، وفترة إنسحاب القوات الاميركية من العراق، وفترة الفوضى الطائفية في مصر.

كما وينتصب سؤال مهم، لماذا لم يعقد هكذا سينودوس يوم قيام الكيان الصهيوني عام 1948، أو يوم السوقيات أي المذابح المسيحية في تركيا عام 1915، أو يوم غزو العراق عام 2003.

لو دققنا في الأحداث لوجدنا ان هناك إيحاءات مكشوفة أو مستورة، توجه للفاتيكان وأتباعه لعقد هكذا مجامع كما حدث بعد حرب لبنان الأهلية، حيث عقد مجمعاً خاصاً حول لبنان، وبعد مضي أربعة أعوام كانت النتيجة، أو «تمخض الجبل فولد فأراً»، صدر كتاب يحمل جملة «لبنان وطن ورسالة»، وانتهى كل شيء، وكأن شيئاً لم يكن.

هذا السينودوس الذي استمر أسبوعين من 10 الى 24 تشرين أول 2010، اصدر بعض التوصيات بلغ عددها أربعين ونيف من بينها ما يخصّ الحوار بين الأديان، والهجرة، واللغة العربية واستخدامها في دوائر الكرسي الرسولي واجتماعاته الرسمية، والحياة المكرسة والحركة المسكونية وغيرها من التوصيات التي توحي بالتجدد للروح الكنسية.

على ان من يخصهم الأمر مباشرة هم المسيحيون العراقيون، فإن تصريحات البطريرك العراقي عمانوئيل دلّي كانت خلاف ما طرحه المجمع وهكذا فعل ايضاً مطران الموصل للسريان الكاثوليك الذي بيّن إن لا إضطهاد في العراق ولا تفرقه: «الكل يعيشون بسلام وأمان وما تبقى هو جناية...». وما علينا الا أن ننتظر لحين صدور الكتاب الرسولي الخاص بالسينودوس عندها يكون مسيحيو العراق قد زالوا من الوجود الفعلي، فما جدوى هذا السينودوس سوى نوع من التخدير الموضعي والوقتي هناك عمل كبير ينتظرنا إذا أردنا بالفعل تثبيت المسيحيين في أرضهم وأوطانهم، عمل له أبعاد تاريخية وتربوية، تعزّز الشعور بالإنتماء لدى الأجيال الطالعة وله أبعاد سياسية تتطلب حواراً جدياً ومعمقاً في أنماط الممارسة الديموقراطية التي تسمح للمسيحيين على قلتهم العددية أن يجدوا الفرص الملائمة للمشاركة في الشأن العام والمساهمة في بناء المستقبل لبلادهم بإعتبارهم مواطنون كاملي الحقوق والواجبات فيها.

والخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل هذه هي وفق رأينا محاولة لإستعادة الثقة المفقودة بين السلطة الكنسية والشعب المسيحي والتي بلغت في بعض الأحيان حداً ينطبق عليه وصف إنجيل لوقا «هوّة عظيمة قد أثبتت بيننا وبينكم» (لوقا 16:26) وقد كان إنعقاد هذا السينودوس مناسبة مهمة إنكشف فيها مدى تدهور الثقة بين السلطة والمؤمنين.

لقد عرفنا أن المدعوين هم السادة البطاركة والأساقفة والرؤوساء العامون لمختلف الرهبانيات. فإذا كانت الكنيسة جماعة المؤمنين والجميع في السينودوس الأكليريكيون فهم لا يشكلون الكنيسة إنما رؤساء الكنائس فاين العلمانيون نصف الكنيسة الآخر بل أكثر وأكثر.

فإذا تابعنا الأرقام لوجدنا المفاجآت فمن بين السبعين مدعواً بين خبراء ومستمعين لا نجد إلا شخصاً واحداً من سورية واثنين من العراق واثنين من الأردن في حين دعي 22

شخصاً من أوروبا و18 شخصاً من لبنان و16 شخصاً من فلسطين و5 من مصر، فما هي القاعدة التي أنتجت هذا التفاوت الكبير في نسب المدعوين؟

ما يمكننا أن نستخلصه هو أن مسألة مشاركة المؤمنين من العلمانيين في السينودوس مشاركة فاعلة ومؤثرة لم تجد من يعيرها أهمية تذكر لا من قبل المنظمين في روما ولا من قبل رؤساء الكنائس المحلية... إنها المشكلة السلطوية للكنيسة فإلى متى السلطة الديكتاتورية وإلى متى الإنتظار...

قبل ختام كلامنا بما طرحناه من تاريخ وشروحات، لا بد من التطرق إلى الحلول الفعلية والعملية لهذه المشكلات المتفاقمة والخطرة مثل الهجرة أو التهجير والإقتلاع، ومنها:

أولاً: نزول الكنيسة، إلى الشارع، وأقصد الآباء الكهنة والرعاة اذ يجب عليهم ان يتجولوا بين الناس (رعاياهم) وخصوصاً الخوارنة رعاة الرعايا، وإلا لماذا نسميهم رعاة ورعايا؟ أليس لأن يقوموا برعاية رعاياهم بالحق والحقيقة، فيجدوا ويعرفوا عن قرب حياة رعاياهم الإجتماعية كيف هم يعيشون مثلاً، وإلا ما فائدة الراعي الذي لا يعرف رعيته كيف يعيش أبناؤها حياتهم اليومية العامة والخاصة، الحدّاد، العامل، المزارع، الكاسب، الموظف والجندي... كيف يعيشون؟ ماذا يأكلون؟ ماذا يشربون؟ كيف يحيون في السرّاء والضراء؟ كيف يتعلمون؟ كيف يتطببون؟ وأقصد بذلك أن يعاينوا ويلمسوا ويشعروا بشعورهم الإنساني على حد قول السيد المسيح «يعرفون رعيتهم، ورعيتهم تعرفهم، ينادون بأسمائها وهي تسمع صوتهم وتتبعهم».

ثانياً: كي نمنع الهجرة، ونُبعد الإقتلاع، علينا إسكان رعايانا وخصوصاً الشباب منهم وذلك بتوزيع الأرض لهم، فالكنائس والاديرة تملك الملايين من الدونمات المتروكة، فلماذا لا يقوم «الرعاة» المسؤولون عنها بتوزيعها على شكل قطع صغيرة لإستغلالها زراعياً، أو لبناء بيوت عليها وبالتالي مساعدتهم على الزواج وتكوين العائلة التي تستقر وتثبت على الأرض، وتجذّر فيها بعيداً عن الضرائب الكنسية، هذه الضرائب الثقيلة على حدّ قول السيد المسيح «تحملون الناس أحمالاً ثقيلة ولا تزحزحونها بطرف إصبعكم» هذه الضرائب التي استنبطها الرؤساء أصحاب الكراسي لظروف خاصة عملاً بقول بولس الرسول «رجل المذبح من المذبح يقتات» صحيح يقتات، ولكن بإنصاف فالذي يأكل

مع الأعمى يأكل بإنصاف.

أجل هذه الضرائب التي سنّها بعضهم عن كل محاسبة أو إعادة النظر فيها والسيد المسيح يقول: «مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا... فمن حق المسيحي الطبيعي أن يعمّد أولاده مجاناً، ويكللهم مجاناً، ويدفنهم مجاناً، إلا إذا أحب هو أن يهدي أو يتبرع بحسب طاقته، وإلا كيف يُثمن الذي لا يثمن الأسرار الإلهية». فمن نحن حتى نقطع الأسعار جزافاً حسب الهوى والغاية. وهي بالتالي تثقل كاهل الرعية من حيث ندري أو لا ندري، فنداء صادقاً «إرفعوا هذه الضرائب أو خففوها وافرضوها بحسب الحياة الإقتصادية للمواطن، ويبقى رجل المذبح يقتات من المذبح ولكن بمنطقية عادلة، فليس الشرط أن يكون له سيارة فارهة أو مكتباً فخماً وما إلى ذلك من الحاجات بالقناعة والتواضع والمحبة وليس بالشراهة إلى حدّ التخمة».

ثالثاً: إضافة إلى ما سبق، فهناك أمر آخر تستطيع الكنيسة أن تساعد به رعاياها، ألا وهو أسعار التعليم في المدارس الخاصة، والإستشفاء في المستشفيات الخاصة أيضاً، فلا بد من إعادة النظر في تخفيضها وليس إلى رفعها التي تجعل منها مؤسسات دنيوية إلى حدّ المقت، وفتح القلوب والصدور لضمّ الأبناء إليها بحسب قول السيد المسيح في أعمال الرحمة: «سقي العطاش، إطعام الجياع، زيارة المساجين، عيادة المرضى، مساعدة الفقراء والمساكين، إكساء العراة، إيواء الغرباء، وما إلى ذلك من الأعمال الإنسانية، لتعود الثقة إلى الأبناء بالرؤساء، والرؤساء بالأبناء، وإلا سينقسم البيت وكل بيت ينقسم على ذاته لا يثبت، ويكون سقوط ذلك البيت عظيماً».

رابعاً: هناك أمر آخر لحلّ المشكلة، التهجير أو الإضطهاد من الإرهاب الذي قد يكون فوق طاقة الدولة، أن يتنازلن قداسة البابا وحاشيته من البطاركة ويقصدوا الأمم المتحدة ومجلس الأمن ويعتصموا فيها طالبين الحلّ، والحلّ المنصف لهذه القضية الخطيرة قضية مسيحيي المشرق المستضعفين بكل معنى الكلمة سيما بإقناع اميركا ومن يدور في فلكها بالحماية الحقيقية على المسيحيين ومصالحهم، لأن أغلب الدول لا تستطيع ذلك إن لم نقل أن اميركا هي التي ترعى الإرهاب.

خامساً: الوحدة المسيحية أمر ضروري للوقوف ضد التهجير والإقتلاع، أن تصبح الكنيسة واحدة بكل ما في الكلمة من معنى، وتلغي هذا الإنقسام المذهبي وهذا الشقاق

الطائفي فكلما زادت وحدتنا زادت قوتنا، وبالتالي قوي ثباتنا في الأرض والتزامنا بالتراث والحياة، وإلا إذا ما استمر الإنقسام كل يسحب السجادة من طرفه عرضاً وطولاً، زاد الضعف واستشرى المرض مما يقتل الجسم وينهكه كثرة المعالجات والزرقات المختلفة، فيكفي بعداً وانقساماً وكفى تضارباً واختلافاً، فإلى الوحدة الكبرى وانتهاء من الهجرة والخوف من الموت البطيء.

سادساً: عدم الإعتماد على ما تقوم به الأنظمة، لأن الأنظمة جميعها بعيدة كل البعد عن المسألة لأنها تداري أمورها وترتب بيوتها ولا تهتم ببيوت الآخرين هذا إن كانت هذه الأنظمة موجودة، وأقصد بها الدولة. فأي دولة اليوم، الدولة عندنا تعتني بنفسها ولا يهمها شعبها سيما إذا كانت تعيش على القوانين والأنظمة العثمانية كما يحدث في مصر مثلاً.

سابعاً: الشعور بالوطن والمواطنة الصالحة، للأسف أغلب المسيحيين لا يملكون المواطنة الصالحة للوطن العامر، فإنه أمر غريب لأن تنشئتنا بعيدة عن المواطنة الحقيقية والوطن المفدى. صحيح كنا نقرأ التاريخ والتراث ولكن لا نشعر بهما بالعمق المطلوب، فيجب إحياء روح المواطنة والوطن والحضارة والتراث، والدفاع عنها بكل نفس ونفيس، سيما بمراجعة جديدة لتاريخ الحضارات الساحقة التي بناها أجدادنا، فلا نكتفي بالبكاء على الاطلال، بل بإحيائها في نهضة قوية والإفتخار بما نقدمه ونضيفه اليوم في العلم والمعرفة والآداب.

ثامناً: وأمر أخير وخطير، هو دعوة لإخواننا المسلمين عن طريق العلماء والشيوخ بتقديم صريح وواضح لبعض المفاهيم الخاصة والعامة مثال: النصارى، المشركين، أهل الكتاب، أهل الذمة بتفسير علمي ناجح لأن الكثير من هذه المصطلحات وغيرها قابل للتأويل والتأوين، والتفسير بما يسمى الظاهري والباطني، إضافة إلى قضية الناسخ والمنسوخ وبعض الأحاديث التي تروى بهذا المجال ومدى صحتها.

أي أن يطمئن المسيحيون من هذه الطروحات التي ما زالت مثار الجدل والإستقصاء، لا سيما الحوار الإسلامي - المسيحي الذي مضى عليه أربعون عاماً ولا نتيجة ولا تحقيق.

هذه الأمور وغيرها يجب أن نطالب بها فنحقق هويتنا الحقيقية بأننا مواطنين من الدرجة الأولى وليس بمفهوم أهل الذمة والمواطنة من الدرجة الثانية أو الثالثة فيكفي التململ في الترهات والإفتراءات بإعطاء كل ذي حق حقه بحسب الكفاءة والقابلية والتغاير بالحسنات.

اين موقع العراقيين؟

مضى على أحداث العراق قرابة عشرة اعوام والمسيحيون فيه يعانون الأمرين من الإضطهاد والتهجير إضافة إلى القتل والسلب والخطف والملاحقة مما حمل أغلب المثقفين من الأكاديميين: الأطباء والمحامين والمهندسين والحرفيين والتجار وغيرهم إلى الهروب والهجرة على أمل العودة أو لا أمل.

هؤلاء المسيحيون المشرقيون الذين وقعت عليهم الطامة الكبرى والراهنة، كنت أقرأ في أذهانهم ونياتهم السليمة بعضاً من المساواة في الحقوق والواجبات وفسح المجال أمامهم وإتاحة الفرصة لهم ليشعروا بأنهم مواطنون صالحون، فاسمح لنفسي ان أدوّن هنا مجرد نقاط تنفع للمستقبل الذي ننتظره في عراق مستقل، آمن، ينتشر فيه السلام والحياة، منها:

1 - التعليم المسيحي، وحق الطلبة في تعلم عقائدهم الدينية أسوة ببقية الطلبة غير المسيحيين، بغض النظر إلى نسبة الطلبة في المدرسة، وعدم التأثير عليهم (خاصة الإبتدائية) بحضور ومشاركة غير المسيحيين في تعاليمهم الدينية وذلك بتأليف كتاب موحّد للتعاليم الملتقية مع بعضها، وحساب درجة التعليم الديني مثل بقية الدرجات الأخرى أو إلغاء المادة في الإمتحانات العامة.

2 - لا إكراه في الدين وعدم تشجيع وإغراء لغير المسلم لإعتناق الإسلام، لكل إنسان حق اختيار الدين الذي يرغبه بعد أن يبلغ السنّ القانوني (سن البلوغ).

3 - المشاركة في التمثيل بالمجالس الوطنية، وبحسب النسبة السكانية للمسيحيين.

4 - للمسيحيين حق انتخاب من يمثلهم في التنظيمات الحكومية وبحرية.

5 – حق التمتع بالعطل الدينية (كما كانت سابقاً) والأعياد الدينية والطائفية بحسب الجدول الذي تقدمه السلطة الدينية والكنسية.

6 – إطلاق حرية الصحافة المسيحية: كتب ومجلات ونشرات.

7 – القيام بالشعائر الدينية وبحرية وعدم المضايقة وعلناً.

8 – المحافظة على المجمّعات المسيحية (القرى والقصبات) وعدم إدخال عناصر غريبة فيها، وإقحام الغرباء فيها، ومضايقتهم وبناء الجوامع فيها لعدد ضئيل من الأنفار. لكل مجتمع خصوصيته ويجب المحافظة على هذه الخصوصية.

9 – عدم ذكر الدين في الهوية الشخصية والجنسية العراقية وكذلك عدم ذكر القومية، والإكتفاء بالعراقي فقط.

10 – حماية الأماكن الأثرية، من الإندثار كالكنائس والاديرة ليبقى وجه العراق الأثري التاريخي ناصعاً ودائماً.

11 – الحفاظ على كيان الكنيسة المركزي وانفصالها عن وزارة الأوقاف كلياً في جميع قضاياها كما كانت سابقاً.

12 – عدم تشجيع الهجرة ورفض الإشاعات والدعايات ووضع حد لكل تشويش وقلق للسكان المسيحيين كإلصاق كلمة المشركين والصليبيين والكفار وغيرها، بهم كأنهم ختم محتوم.

13 – للمسيحيين الحق في الوظائف العامة والتدرج فيها وبالعالية منها حسب كفاءتهم وتقييم قدراتهم وكذلك في مراتب الجيش بنفس الإعتبار والنسبة السكانية.

14 – عقد مؤتمر دوري بين المسيحيين والمسلمين وسائر الأديان تحت عنوان «مؤتمر التسامح الديني في العراق» تطرح فيه القضايا الآنية وغيرها من البحوث الجامعة للأخوّة وتبادل الآراء ووحدة المصير.

الباب الثالث

المسيحيون أعمدة الحضارة الإسلامية

مقدمة

من الامور المهمة التي اركز عليها بالنسبة الى المسلمين في الوطن العربي، هي الحرص الكامل والتام على ضرورة وجود وفاعلية المسيحيين في الوطن العربي، وعلى تكاملهم وعلى شعورهم بالانتماء الكامل والرضى الكامل، وعلى عدم الشعور بالاحباط او بالحرمان او النقص او بالانتقاص، او بالخوف على المستقبل وما الى ذلك.

فالقضية اليوم قضية مصير المسيحيين المشرقيين التي بدأت تثير قلقاً متزايداً في الاوساط المسيحية العربية والاجنبية وهي وجود المسيحية في الشرق، وحضور المسيحية في الشرق. وانا ارى ان من مسؤولية العرب والمسلمين ان يشجعوا كل الوسائل التي تجعل المسيحية في الشرق تستعيد كامل حضورها وفاعليتها ودورها في صنع القرارات، وفي تسيير حركة التاريخ ان تكون هناك شراكة كاملة في هذا الشأن بين المسلمين والمسيحيين في كل اوطانهم وفي كل مجتمعاتهم.

احياء الدور المسيحي في المشرق العربي مهم جداً للعودة الى الجذور وذلك بالغاء مصطلح الاقلية، سيما اذا كانت هذه الاقلية من مكونات الشعب الاصيلة.

من هذا المنطلق نتكلم اليوم في موضوع قد اهمله التاريخ وتجاهله، الا وهو ان المسيحيين المشرقيين هم بناة الحضارة الاسلامية واعمدتها التي قامت عليها امجاد الدولة الاسلامية والمسلمين، لانه للاسف لم ينصف المؤرخون المسلمون سيما المحدثين منهم دورهم في هذا الميدان الجزيل القيم ولم يعط لهم مكانتهم التاريخية والتراثية والفكرية.

المسيحيون بناة الحضارة الاسلامية

كوني عربياً مسيحياً انتسب الى الكنيسة المشرقية، اراقب تراجع الدور المسيحي في العراق، او في المشرق العربي او في العالم العربي عموماً، وكان المسيحيين في ديارنا ليسوا سوى بقية باقية من شعب منقرض، بقية تنتظر دورها لتنزلق في متاهات الزوال.

ولكن السؤال المهم ما هو مصير العرب كشعب تاريخي في حال زوال المسيحيين من بينهم، مع الاخذ بالاعتبار ان مثل هذا الزوال للمسيحيين العرب، في صورة او اخرى، امر يمكن تخيّله؟ الذي سيحدث هو ان العرب لن يبقوا عرباً، في حال زوال المسيحيين مما يطلق عليه حتى اليوم اسم العالم العربي لن يبقى العرب عرباً على ارضهم التاريخية، بل ان الأمر يتخطى ذلك بكثير ويتجاوزه. مع مثل هذا الزوال المفترض للمسيحية العربية، ولن يكون هناك شيء في العالم اسمه عرب بالمعنى الكياني التاريخي الوجودي المطلق ومن دون تحفظ، وبعبارة اخرى لن يبقى هناك في اي مكان من العالم كينونة عربية قائمة بذاتها لا تتصف الا بعروبتها، ولا يختلط امرها بالاسلام.

المسيحية في ديار العرب جاءت سابقة للاسلام بحوالي ستة قرون مما جعل منها اصلاً وليس فرعاً للكينونة العربية ألتاريخية، على عكس الرأي السائد بين العامة من المسيحيين والمسلمين، والقائل بان العروبة مرتبطة اصلاً بالاسلام. والواقع ان للمسيحية في تاريخ العرب على مرّ العصور دوراً واضحاً وجلياً. قرون من الحروب بين المسلمين والروم، ثم بين المسلمين والفرنجة، وما الى ذلك، لم تؤثر في هذا الدور ولا هي تمكنت من إلغائه او تحجيمه.

من مسيحيي ما قبل الاسلام من كان على رأس شعراء الجاهلية الذين هذّبوا لهجات لغة الاعراب وصقلوها في ما نظموا من روائع الشعر، وخلقوا بذلك اللغة العربية الفصحى، واضعين الاسس الاولى لتراثها المستمر الذي يبقى حتى هذا اليوم المفخرة التي يجتمع حولها مجمل العرب.

وكل ممالك العرب وإماراتهم في زمن ما قبل الاسلام، كانت مسيحية.

العهد الجاهلي

منذ ان بزغ نور المسيحية في اورشليم القدس حاضرة فلسطين انتشرت في شبه جزيرة العرب بشمالها في نجد، وفي الطائف ومكة ونجران، ثم في يثرب وسواحل الخليج العربي: قطر والبحرين وعُمان... وامتدت الى بلاد الرافدين سيما في البصرة والكوفة والحيرة عاصمة المناذرة وطيسفون والموصل وحدياب وكذلك الى بلاد الشام بأيام الغساسنة وتدمر ودمشق وحمص وحماة وحلب... هذه وغيرها اعتنقت المسيحية وتحضرّت بحضارتها فارتقت بسلمّ العلوم والمعارف والآداب سيما في الشعر والترجمة، فكان بينهم صلات وعلاقات شخصية حيث زار الشاعر الاعشى الحيرة وأرض الانباط والعجم، ولقاء امرئ القيس الاول، وامرئ القيس الثاني الملك الضليل مع القيصر، وصلة العرب الاعاظم مع المنذر بن النعمان... اضافة الى العلاقات التجارية. مع الهند والصين والفرس والروم والحبشة... والعلاقات الدولية. حيث عمل الشاعر عدي بن زيد الحيري المسيحي كسفير لهرمز بن انو شوران الى القيصر طيباريوس وخلفه ابنه زيد في وظيفته، كما عمل في المهنة نفسها اخوان له...

كما لعب الدين ايضاً دوراً كبيراً في احياء التعليم والترجمة، وقد جعل البيزنطيون كنائس في بلاد العرب، التي لعبت دوراً كبيراً في التبادل الثقافي، وقد صدق الدكتور جواد علي حيث قال: «كان للمبشرين شأن مهم في نقل التراث اليوناني والارامي (السرياني) الى جزيرة العرب في ايام الجاهلية».

فقد ثبت ان التوراة والانجيل كانا مترجمين الى العربية في العصر الجاهلي، وان الشعراء استخدموا في كلامهم معاني تختلف عن معاني كلمات ديانتهم ما يدلّ على وجود التبادل الثقافي والديني، فمثلاً يقول عدي بن زيد، الذي كان ماهراً في العربية والفارسية والرومية والعبرية والسريانية، وهو الذي نظم قصص التوراة بالعربية.. وهكذا اميّة بن الصلت والاعشى...

وهكذا ايضاً وجد الكلمات الاجنبية التي وردت في كلام الجاهليين وحتى في القرآن مثلاً.

الزبور، الرهبان، والسجنجل، والمحله، والأس، والحندقوق، والريحان، وشالم والانجيل والتابوت وغيرها تتجاوز المئات.

الشعراء المسيحيون

اشتهر في العصر الجاهلي العديد من الشعراء المسيحيين وبرزوا وخلّد التاريخ ذكرهم ومن ابرزهم المهلهل، وهو عدي بن ربيعة التغلبي الذي توفي نحو سنة 531 م، وامرؤ القيس المتوفي سنة 450 وعمر بن كلثوم المتوفي في اوائل القرن السابع وهو التغلبي ايضاً جاء في معلقته مفتخراً:

الاّ هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا
بأنّا نورد الرايات بيضاً ويصدُرهنّ حمراً قد روينا
ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا وظهر البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا بلغ الفطام لنا صبيّ تخر له الجبابر ساجدينا

والشاعر النابغة الذبياني (توفي نحو 604 م) والشاعر زهير بن ابي سلمى (530 – 627) الحكيم ومن حكمه المشهور:

ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذماً عليه ويندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وانا خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صوره اللحم والدم

والشاعر عدي بن زي العبادي (توفي سنة 604) الحيري السرياني النسطوري... وغيرهم كثيرون من الامراء الذين اغنوا العربية وصفاً وحكمة.

واذ ننسى فلا ننسى قس بن ساعده الايادي المتوفي سنة 600م، وخطبته الشهيرة «ايها الناس، اسمعوا وعوا، واذا وعيتم فانتفعوا من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، واوراق واقوات، وآباء وامهات، واحياء واموات، وجمع وشتات، وآيات بعد آيات، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات ابراج...».

وهكذا تواصل العرب المسيحيون بقبائلهم العربية كالتغلبيين والمضريين والعباديين، والغساسنة والمناذرة، وبني سُليم والنجرانيين يتغنون بامجادهم ومفاخرهم كالكرم وسيدهم حاتم الطائي والايثار والغيرة والنخوة والشهامة بظهور الاسلام وبعده.

العصر الاسلامي

احترم صاحب الشريعة الاسلامية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، المسيحيين ومدحهم كثيراً في كتابه القرآن الكريم فهناك العديد من الايات: «ولتجدن الاكثر مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ومنهم قسيسين ورهبانا وهم لا يستكبرون»، «وقد حللّنا لكم طعامهم وشرابهم ونكاحهم واحترام حقوقهم الاجتماعية والدينية».

قد عامل الرسول المسيحيين بغية التسامح، فقد كتب لأهل نجران في عقد الصلح معهم «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد، على أموالهم، وارضهم، وملتهم، وغايتهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل او كثير، لا يغيّر اسقف من اسقفيتهم، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهناته، ولي عليهم دية، ولا

دمّ جاهلي، ولا يحشرون، ولا يعشّرون، ولا يطأ ارضهم جيش، ومن سأل منهم جزيتهم فهمهم النصف غير ظالمين، ولا مظلومين، ولا يؤخذ منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمّة محمد...». وقال ايضاً: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو اخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة...».

وقد سار الخلفاء الراشدون على هدى القرآن وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في معاملة المسيحيين. وقد استبشر المسيحيون خيراً بالفتح الاسلامي، وعاشوا جنباً الى جنب مع المسلمين في أمان واطمئنان ورغد عيش، فسمح لهم المسلمون بالاسهام في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، في الكوفة والبصرة والحيرة والمدائن وكافة الاماكن من ارض العراق وبلاد الشام حيث تخلصوا من ظلم الفرس والبيزنطيين وتعسفهم حتى في حياتهم الدينية ولقد بلغ من تقدير المسيحيين في سورية لعمر بن الخطاب واحترامهم انه لكونه انقذهم من الروم كما يروي الطبري: «ان اهل الكتاب كانوا اول من قال لعمر «الفاروق» ومعناه المنقذ والمخلص».

وكذلك في عهد عثمان بن عفان الذي دافعت عنه في مصيبته زوجته المسيحية نائلة بنت الفراقصة المسيحية، التي قطعت اصابعها حينما ردّت السيف عنه وهي التي ارسلت قميصه الى معاوية بن ابي سفيان والى بلاد الشام.

وايضاً علي بن ابي طالب في وصيته الى عامله في المسيحيين فقال: «اذا قدمت عليهم فلا تبعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن احداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درّة، ولا تبع لاحد منهم عرضاً من الخراج فأنا انما امرنا ان نأخذ منهم العفو».

وايضاً: «ان الخليفة علي اعطى المسيحيين من العطاء وساواهم بالعرب والموالي. كما وامر عاملان ان يحفر نهراً لاهل الذمّة يروون منه ارضهم، كما روى اليعقوبي».

ومما يجدر ذكره بهذه الفترة: «ان الجاثليق يشوعياب النسطوري ارسل الى الرسول العربي هدايا مع جبرائيل اسقف ميسان وسأله الاحسان الى المسيحيين وكان جواب الرسول: ان برّه بعدّة من الابل، وثياب عدنية، وقال توما المرجي: ان الجاثليق

الجدالي بعث برسالة الى احد اساقفة الفرس يقول فيها: ان العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة المسيحية ويودون القساوس والرهبان ويكرمون اولياء الله ويحسنون الى الكنائس والاديار».

وهكذا نشير الى ان رؤساء الكنيسة مع المسيحيين هم الذين استقبلوا الجيوش الاسلامية، لدى عملية التحرير، فالمفريان ماروثا التكريتي فتح ابواب تكريت، ومار آمه الارزوني استلم من الخليفة على كتاب وصية كان يظهره لكل من تولى رؤساء الجيوش وامرائهم فيمتثلونه.

وهكذا الاسقف ايليا فتح ابواب دمشق والمطران صفرونيوس فتح القدس للخليفة عمر والبطريرك طيمتاوس الكبير كان صديقاً للخليفة المهدي وهارون الرشيد والمأمون وايضاً مساندة التغالبة جيش سعد بن ابي وقاص في معركة القادسية الفاصلة.

العهد الاموي (661 – 750)

ان خلفاء العهد الاموي إتبعوا منتهى التسامح مع المسيحيين وقرّبوهم اليهم، فازدهرت الدولة في ايام معاوية بن ابي سفيان وعمّ السلام، وتمتع الناس بحرية مطلقة، فان المسلمين قاموا بحق المسيحيين والرهبان، فكانوا يطالبونهم بالجزية ويطلقون لهم الحرية في امور دينهم. وقد اسند معاوية الادارة المالية في الدولة لاسرة مسحية توارث ابناؤها الوظيفة لمدة قرن من الزمن، ومن افرادها مار يوحنا الدمشقي المعاصر لمعاوية ولابنه بزيد.

وفي ولاية الوليد بن عتبة على الكوفة ولّى ادارة سجن قريب من الكوفة.

وعامل المختار الثقفي المسيحيين بالعراق معاملة حسنة، وفي ولاية الحجاج الثقفي على العراق، كان عامله. بخرسان يبني لأهل الذمة البيع وقد سمح له الحجاج بذلك.

وكان الاخطل الشاعر المسيحي التغلبي يدخل المساجد في دمشق في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، فيقف له المسلمون اجلالاً، وكان يدخل عليه بغير إذن، وهو مخمور، وعلى صدره صليب ولا يعترضه الخليفة ولا غيره.

واتصف عهد عمر بن العزيز بالعدل والاحسان لاهل الذمة، فقد أمر عمّاله بان لا يهدموا كنيسة او بيعها، صولح اهل الذمة عليها، فهو طبّق العدل بالحفاظ على مقدسات اهل الذمة، وقد نصح الولاة وحذرهم من الاساءة والاعتداء عليهم او اضطهادهم، وقد كتب الى عامله على البصرة عدي بن ارطأة يوصيه بالانفاق من بيت مال المسلمين على من عجز من العمل واصابته فاقة من اهل الذمة.

وفي عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك، نَعِمَ المسيحيون بالتسامح والاعتماد عليهم في امور الدولة، فقد اتخذ له كاتباً مسيحياً يقال له: البطريق ابن النقا وقد استعمله ناظراً على مبانيه في الرملة من اعمال فلسطين ومراقبة القنوات والابار والمسجد القائم بها.

وفي عهد هشام بن عبد الملك عهد بولاية العراق الى خالد القسري فعامل مسيحيو العراق معاملة طيبة واستخدمهم في وظائف الدولة وسبب ذلك لكون امه كانت مسيحية فاقام لها كنيسة في الكوفة وسمح للمسيحيين ان يبنوا كنائس جديدة.

كما اشتهر بهذا العصر الشاعر القطامي المسيحي الى جانب الاخطل وغيرهما.

العهد العباسي (750 – 1258)

كان للمسيحيين في العصر العباسي نفوذ كبير ومكانة مرموقة لدى الخلفاء، بما نالوه من حظوة ونفوذ لدى درجة انهم اضطهدوا المسلمين وظلموهم فاجتمع جماعة من المسلمين الى شبيب بن شيبة وسألوه مخاطبة الخليفة المنصور ان يدفع عنهم المظالم ولا يمكن المسيحيين من ظلمهم وعبثهم في ضياعهم.

اذن الخليفة المنصور وسمح لطبيبه جرجيس بن بختيشوع في الدخول على حرمه وحظاياه.

وكان الخليفة المهدي يكرم المسيحيين ويحسن اليهم. والخليفة الهادي كان يكرّم الاساقفة ويجالسهم بل كان يستدعي الجاثليق طيمثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين، وكذلك كان يفعل معه الرشيد الذي سمح لهم باحداث الكنائس والاحتفال بالاعياد والخدمة في وظائف الدولة.

وفي خلافة هارون الرشيد كان المسيحيون يخرجون في موكب كبير وبين ايديهم الصليب يتقدمهم رؤساء دينهم. وقد اعطى لهم سلطات واسعة. وكان عند تنصيب رئيس لاحدى الطوائف يقترن انتخابه بموافقة الخليفة عند تعيينه بمنصب الرئاسة. وبعد انتخاب الجاثليق كانوا يسيرون الى دار الخلافة حيث كان يحظى بنيل الكتاب الحاوي على حقوقه وسلطانه، ثم يأمر له الخليفة بالهدايا من الثياب الثمينة وبعد ذلك يتوجه الى مقره تصحبه ثلة من الجنود وجماعة من عظماء الدولة والمطارنة والاساقفة.

وقد قرب الرشيد اليه نخبة من الاطباء المسيحيين ووكل اليهم الاشراف على المستشفيات ودور العلاج، ووضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسوية، وفوّضه الى النساطرة وقد حدث في بعض الاحيان ان بعض الخلفاء في العصر العباسي اشتد في معاملة اهل الذمة وخاصة المسيحيين بحسب العلاقات مع الدولة العباسية بالبيزنطيين.

وبلغ من حظوة ومكانة الطبيب جبرائيل بن بختيشوع، ان الرشيد قال لأحصابه فيه: كل من كانت له حاجة فليخاطب فيها جبرائيل، لاني افعل كل ما سألنيه ويطلبه مني.

يذكر المؤرخ فتّال: ان الرشيد سمح ببناء الكنائس والاديرة وكانت زوجته السيدة زبيدة قد ساعدت سرجيوس اسقف البصرة ليبني الكنائس فيها وقد حصلت من زوجها على هذا السماح وكانت تعطي الهدايا والصلبان من الذهب والفضة لرؤساء النساطرة واليعاقبة.

وفي عهد الامين، نال المسيحيون الحرية الواسعة في ممارسة شعائرهم الدينية فيعتبر بذلك عصر الامين عصر ازدهار بالنسبة الى بناء الكنائس والصوامع المسيحية.

اما عصر المأمون (198 – 218م) عصر اصلاح بالنسبة الى الكنائس والمعابد اذ انه سمح بانشاء كنائس جديدة واصلاح الكنائس القديمة.

وكان المأمون لا يؤثر مذهباً خاصاً، بل أباح استخدام الجميع في مناصب الحكومة. ويقول المؤرخ أولستر في ذلك: إن المأمون انشأ مجلساً استشارياً للدولة يتألف من ممثلي جميع الطوائف، واصبح هذا الديوان يضم المسلمين واليهود، والمسيحيين، والصابئين، والزرداشتيين على حدّ سواء، وكانت حرية الاعتقاد والعبادة مضمونة للجميع، وأضحت سياسته مضرب الامثال في التساهل حتى بلغ عدد الكنائس التي شيدت في عهده احد عشر الف كنيسة علاوة على مئات الهياكل. وكان البطاركة والاساقفة والكهان يتمتعون بامتيازات وحصانات كاملة كالتي يتمتع بها امثالهم في الدول المسيحية التي تدين بدينهم.

وبرز في عصر المأمون شخصيات مسيحية منهم يوحنا بن ماسوية السرياني، ويوحنا بن البطريق، فكان ابن البطريق اميناً على ترجمة الكتب الحكمية واشهر اطباء المأمون جبرائيل الكحال فكان له في كل شهر الف درهم، وكان اول من يدخل على المأمون في كل يوم. وترجم في عصره كثيراً من كتب الفلسفة وعقد مجالس المناظرة. وقد ادّت هذه السياسة الى نشاط الحركة العلمية بصورة خاصة في عهده. وظهرت روح المناقشات بين المسلمين وطوائف المسيحيين.

وفي عصر الخليفة المعتصم، ساد التسامح الديني بين الطوائف المسيحية والاسلامية، ولم يتعرضوا فيه لأي اضطهاد او مضايقات، كما انه قضى شطراً كبيراً من حياته في قتال الخارجين عن الاسلام، والقائمين على الدولة، وقد قرّب الاطباء والعلماء وكان من اشدّ المقربين اليه طبيبه سلمويه، فلما مرض عاده المعتصم في داره وبكى عنده، ولما مات سلمويه قال المعتصم: «ألحق به لانه كان يمسك حياتي، ويدير جسمي، وامتنع عن الاكل ذلك اليوم، وأمر باحضار جنازته الى قصر الخلافة وان يصلى عليها بالشمع والبخور على رأي المسيحيين».

ويقول الجاحظ في احوال المسيحيين آنذاك: «انهم نافسوا المسلمين في لباسهم وركوبهم وألقابهم، وتسمّوا بالحسن والحسين والعباس، الفضل، علي، عثمان، واكتنوا بذلك اجمع.. فرغب اليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانيز، وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية، مع اقتدارهم على دفعها، وسبّوا من سبّهم، وضربوا من ضربهم ومالأهم... وعامتهم يرون ان دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء يوم جعفر وعلي وحمزة... وكان منهم كتّاب السلاطين وفرّاشو الملوك واطباء»، ويقول الجاحظ ايضاً:

«ان المسيحيين اتخذوا البراذين الشهيرة والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجه، وتمنطقوا بالعدني ولبسوا الملحم، والمطبقة، واتخذوا الشاكرية».

وكانت الجامعات والمعاهد الاسلامية مفتوحة للدراسة فيها للمسيحيين وقد تتلمذوا على ايدي علماء وفقهاء مسلمين فدرس يحي بن عدي على يد الفارابي ودرس ثابت بن قرة على يد محمد بن موسى، والفارابي درس على يد المطران يوحنا بن حيلان.

وسكن المسيحيون مع المسلمين في احيائهم. وكانت الاديرة والكنائس في كل نواحي بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناصية. وشارك المسلمون اعياد الشعانين عيدا يحتفلون به معاً، (قصة المأمون وحضوره الشعانين في الموصل).

وصف المستشرق ترتون حالة المسيحيين في ظل الحكم الاسلامي، فيقول: «... فقد كان المسيحيون في بعض الاحايين يوثرون العيش في ظل الحكم الاسلامي على العيش في ظل اخوانهم المسيحيين»، ومع هذا التسامح العظيم الذي شهده تاريخ المسيحيين في العراق في عصر الراشدين والامويين في عهد المتوكل سنة 235 هـ. يأمر المسيحيين بلبس الطيالسة العسلية، وبشدّ الزنار، وركوب السروج الخشبية ونهى ان يستعان بهم في اعمال الدولة، وامر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ومنعهم من اظهار الصلبان في الشعانين، وأمر ان يجعل على ابوابهم صور الشياطين من الخشب وان يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب، ولون كل واحدة تخالف الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً، ومنعوا من لبس المناطق، ونهى ان يتعلم اولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم، وامر بتسوية قبورهم مع الارض.

وكتب بذلك الى عماله في الافاق وحذرهم بانزال العقوبة بمن خالف ذلك.

وقد شمل هذا الاجراء النساء ايضاً فلبسن الازر العسلة. وان تخالف المرأة منهم بين لون خفيها فيكون الواحد اسود والاخر ابيض، وان يضعن في اعناقهن اطواقاً من حديد اذا دخلن الحمام فاسلم بعضهم رجالاً ونساء هرباً من هذا الاسلوب.

ولكن - والحق يقال - رغم سياسة الشدة هذه التي اتبعها المتوكل في معاملة المسيحيين فانه لم يستغن عنهم في اعمال الدولة ودواوينها فكان مالك بن الوليد المسيحي صاحب ديوان النصر، كذلك اسند ديوان الخاصة وبيت المال الى مسيحيين هما ابو الغنائي واخوه. وكان بنان المسيحي كاتباً لصاحب الديوان، وكان من اطبائه حنين بن اسحق مكرماً لديه...

وقد امتلك المسيحيون الاموال الطائلة نتيجة مزاولتهم المهن الحرة كالهندسة والطب والصيدلة، واشتغلوا بالتجارة والزرعة والحرف الاخرى فبنوا القصور الشاهقة والمفروشة بالاثاث النفيس. وقيل ان الطبيب بختيشوع بن جبرائيل كان يضاهي المتوكل في اللباس وحسن الحال والجواري والعبيد ولما دعاه الى قصره احضر كل ما في بغداد من الخيش ورطبه بالماء ليصير كل مكان يمرّ به الخليفة رطباً، وكان من عادته ان يجلس في عربة من الابنوس ويخرج من قصره وبين يديه الف من الرجال ويقال انه كان يصرف كل ليلة خمسمائة دينار على الشمع والزيت والبخور.

الترجمة والمترجمون

ظهرت حركة الترجمة الى حيز الوجود في العصر الجاهلي، فقد تمت فيه ترجمة الكتب الدينية الى العربية، خاصة التعاليم الدينية لدى انتشار المسيحية بين العرب، الا ان عصر الخلفاء الراشدين والعصر الاموي يختلفان عن العصر الجاهلي والمحمدي (فجر الاسلام) ففي عصر عمر بن الخطاب اخذ عمرو بن العاص معلومات عن فيلسوف يوناني، وفي العصر الاموي ترجم لمعاوية وخالد وهشام وغيرهم كتب في الطب والكيمياء والرياضيات.

اما العصر العباسي فهو في الحقيقة عصر الترجمة وازدهارها، حيث شملت العلوم العقلية كالمنطق والنجوم والفلسفة والهندسة حتى الخرافات اضافة الى الطب والعلوم العملية. في تركيب الادوية والميكانيك...

ونقسم الترجمة في العصر العباسي الى ثلاثة اقسام:

الاول: من خلافة السفاح الى نهاية حكم الامين (754 - 813).

الثاني: من خلافة الأمون الى نهاية حكم المقتدر (813 - 908).

الثالث: من خلافة القاهر الى نهاية العصر العباسي (908 - 1258).

ففي الدور الاول استقدم المنصور الطبيب جورجيس بن بختيشوع ليكون طبيباً له، فلبى الطبيب دعوته وعاش في بغداد فترة من الزمن ثم عاد الى بلده جند سابور حيث مات، ولكن رابطة اسرة بختيشوع ظلت قائمة مع الخلفاء العباسيين حيث خدم بختيشوع الثاني بن جبرائيل الخليفة المهدي.

وقد برعت هذه الاسرة النسطورية في الطب وكان زعيمها جبرائيل شديد الاعجاب بالطب اليوناني اذ ترجم عدداً من المؤلفات الطبية لجالينوس وابقراط.

وفي خلاقة المنصور عنيت الدولة بترجمة كتب الفلك والتنجيم، وقد طلب المنصور من الامبراطور البيزنطي ان يرسل اليه ما عنده من مخطوطات وكتب يونانية فارسلها اليه. ومن مترجمي بلاط المنصور ابن البطريق.

ولما انتقل الحكم الى هارون الرشيد ارسل مندوبين ليشتروا المخطوطات اليونانية. ولا سيما الطبية منها وبذلك انفق اموالاً طائلة. وفي زمانه برز الطبيب يوحنا بن ماسوية بنقل الكتب الطبية والحجاج بن يوسف بن مطر ترجم كتاب اقليدس.

وهكذا باقي الخلفاء كالمعتصم والواثق والى يوم سقوط بغداد عام 1258 على يد هولاكو المغولي.

وبالنتيجة بعد ان القينا هذه النظرة السريعة على العصور العربية والاسلامية من الجاهلية وسقوط بغداد وجدنا من رفع راية الحضارة العلمية والعملية في كافة الميادين

كانوا المسيحيين سيما السريان الذين اعتبرناهم اعمدة الحضارة الاسلامية دون شك وبطون التواريخ تشهد على ذلك الى حدّ هذا اليوم.

بعد سقوط بغداد انتكست راية الحضارة العربية الاسلامية باستيلاء اقوام همج على زمام الحكم والادارة ابتداء من المغول وانتهاء بالعثمانيين وهذا واضح لدى الجميع.

تبقى النقطة المهمة والبارزة امامنا اليوم، موقف المسيحيين في المشرق العربي ودورهم في الصمود او التهجير ام الاقتلاع.

الاسباب والنتائج

بعد سقوط بغداد كما اشرنا قامت الدولة العثمانية التي احتلت بلادنا اكثر من اربعة قرون فيها انحطت كل مظاهر الحضارة والمجتمع وساد الجهل والفقر والمرض، وبرزت في تاريخنا المسألة الشرقية التي ما زالت تجرّ اذيالها علينا الى هذا اليوم مسألة حماية المسيحيين في الدولة العثمانية وقد عقدت حولها معاهدات واتفاقيات ان تكون روسيا محامية عن الارثوذكس وبريطانيا تحامي البروتستانت وفرنسا تحامي الكاثوليك، اضافة الى ما وضعته الارساليات التبشرية التي اسميها انا التخريبية من التجزئة والتميز التي نعاني منها الى يومنا هذا حينما قسموا الكنيسة المشرقية وما زالت منقسمة الى اليوم. وحينما بدأت تظهر الافكار والنظريات القومية في اوروبا وفي تركيا برزت فكرة التتريك، شرع المسيحيون المشرقيون هم ايضاً يفكروا مع اخوانهم العرب باللجوء الى تكوين الجمعيات السرية مطالبة بالاستقلال أو نيل الحقوق الاجتماعية والحضارية حينما صرخ ابراهيم اليازجي:

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب
فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

وشرع المسيحيون العرب ينهضون بحركات فكرية كالصابونجي وخليل غانم ونجيب عازوري وداود صليوا وانستاس الكرملي ويوسف داوود وغيرهم الكثير فاوجدوا

نهضة عربية مسيحية متكاملة وراحوا يعملون في كل الميادين بسبيل التخلص من الحكم العثماني ونيل الاستقلال الذي تم بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى باستقلال العراق ومصر وسورية ولبنان، الا انه للاسف، هذه الكيانات او الانظمة لم تواصل المسيرة الوطنية فراحت تعمل بمزاجية خاصة.

1 – ان اخطر ما يواجه المسيحية المشرقية هو سياسة النكران والتجاهل والاستخفاف بمواطنيها المسيحيين من قبل القيادات الرسمية حين تتكلم عن الدور او الحقوق.

2 – ان اغلب الانظمة على اختلاف طبيعتها ملكية او عسكرية او ثورية او حزبية او عائلية وعلى اختلاف قومياتها: ايرانية او تركية او عربية او كردية على علاقة شبه ملتبسة اصلاً بشعبها او شعوبها وتفتقد المعنى العميق لما هو معروف اليوم بحقوق الانسان وحقوق الجماعات وحقوق الاقليات.

3 – ان الانظمة تتعامل بعقليات متنوعة مع قضية المسيحيين المشرقيين.

4 – ان اغلب الانظمة انصهارية عنصرية على درجات متنوعة لا تعترف بالتاريخ الحقيقي للمنطقة ولا لجذورها ولا لحضارتها فلا تقبل بالتعدد القومي ولا المذهبي.

وعليه نقرأ في خارطة الوطن العربي للانظمة:

أ – اسلامية قومية

ب – اسلامية ثورية

ج – علمانية حزبية تريح المسيحيين في حرياتهم لكنها لا تعترف باحزابهم وتمثيلهم في الدستور.

د – ديموقراطية، لا تعط للمسيحيين في المجلس النيابي حقهم.

ما هو المطلوب في عالمنا اليوم؟

1 – قضية المسيحية المشرقية لمن يريد ان يعرف ليست عدداً كبيراً وصغيراً، ولا

منّة، ولا حماية ولا حراسة ولا بناء كنائس، ولا ترميمها ولا قبة ولا قرع جرس، ولا تسامحاً، وهم ليسوا حصان طروادة لأحد، إنها قضية الشعور التام بالمساواة كمواطنين والحقوق التامة كمجموعات وطنية اصيلة لها هي ايضاً قومياتها ولغاتها وعاداتها وحضارتها انها قضية المشاركة السياسية في صناعة القرار الوطني.

2 – صحيح ان المسيحية المشرقية تنزف في مهد انطلاقها في الاراضي المقدسة، وان المسؤولية جسيمة في التهجير ومحو هذا الحضور، وان رمزية بقاء المسيحية هناك له بعد مذهل. فهل يمكن ان يعود السيد المسيح والشرق خالٍ من مسيحييه ومن يستقبله؟ لكن هناك محاولة غير بريئة للإيحاء وكأن مشكلة المسيحية المشرقية هي فقط مع الفكر الصهيوني (مشكلة الصلب والرومان والايمان، والسيد المسيح والسياسة).

3 – ان المسيحية المشرقية، رغم بعض العثرات التاريخية السياسية في مراحل، هي بنت هذه الارض وقضاياها، وهي رائدة في الدفاع عنها، لكنها في الوقت نفسه والجرأة نفسها ترفض ان تكون كبش فداء لتيارات اصولية تقتلعها وتهجّرها وتكفّرها وتخوّنها وتفجر كنائسها وتغتال رجال دينها، والعالم العربي والاسلامي شبه صامت ومتواطئ ومتفرج انها مسؤولية امام الله والتاريخ والانسانية.

4 – اننا نتكلم عن ناس وبشر وشعوب وليس عن «اقليات» نحن اكثر من 20 مليون مسيحي مشرقي نعيش هنا بتراثاتنا وقومياتنا وتواريخنا ولغاتنا ونحن ملايين في الانتشار ايضاً.

ماذا يضير القادة والعالم العربي والاسلامي وجامعة الدول العربية ان يظهروا التفاتات متنوعة ومبادرات دستورية وقانونية وتربوية تساهم في تنمية فكر العيش الواحد وقبول الاخر في اعطائه حقوقه كاملة.

5 – ان اسوأ ما يصيبنا في ايّ نقاش حول مصير المسيحية المشرقية هو العودة بنا الى النص او التاريخ او الظن ان المطلوب فقط حوار اديان على اهميته او حفلة علاقات عامة. انا اقول للنخب والقيادات نريد حلولاً الان. من المسؤولين القائمين اليوم مباشرة لا من الخلفاء ولا ما حصل في العصر العباسي، ولا نحن كأهل الذمة، ولا انتم كفاتحين بل نحن معاً كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات التي يصونها الدستور.

6 – الاعتراف الواحد بالآخر كما هو المسيحي والمسلم، بمصداقية وبراءة بعيداً عن المجاملات والنفاقات لانه مضى علينا اكثر من اربعين عاماً من حركة الحوار في الندوات والمؤتمرات واللقاءات، ماذا جنينا غير الحمل الطنانة والالفاظ الرنانة وبالتالي ماذا جنينا غير الدوران في الحلقة المفرغة.

مسؤولية المسيحيين المشرقيين

ان اخطر من كل هذا وذاك هو الانسان المشرقي ذاته في عدم تفهم مسؤولياتهم وهي:

1 – المواطنة الصالحة والشعور بها والعمل من خلالها ولها.

2 – الهوية والانتساب الى العروبة او غيرها فهو كالضائع بهذا الانتساب يتجاذبه الدين والدولة، القومية والمذهب.

3 – الضياع بين الداخل والخارج بين الغياب والاغتراب.

4 – فتح الابواب امام المهاجرين واغرائهم بالسفر الى البلدان الاجنبية كسيف ذو حدين، الاول تضييع الهوية والتراث والثاني استغلال الطاقات والقابليات العلمية والعملية وتفريغ القابليات من الايدي العاملة والعقول المفكرة.

5 – والاخطر من كل هذا وذاك هو الانسان المسيحي المشرقي، فاذا كان يفكر بأرجله يسعى الى المغادرة وجواز اجنبي للسفر فلا قضية له ولا حلول. واذا كان لاغياً لنفسه ولهويته ولذاتيته فلماذا اصلاً يطالب ويناضل. واذا كان ينتظر حلولاً من الغرب على شكل علب جاهزة او اساطيل تحمي او اساطير ورهانات غبية في السياسة والثقافة حتى انه هو لا يفهم شيئاً منها كيف تصير وكيف تحقق.

6 – وهناك في المهجر كأن التاريخ يهاجر معه متقوقعاً في حارات خاصة بالمسيحيين في عيش غير واقعي. واذا كان متلهياً بالحساسيات المذهبية والدينية والقومية والكنسية فلا أمل له.

وهنا يحق لنا ان نتساءل: نحن المسيحيون ماذا نريد؟

اذا كنا نفضل سيدني على بيروت، وشيكاغو على اور، ومونتريال على بابل، وروما على القدس، والسويد على بلاد الرافدين، والارجنتين على بلاد الشام، فبئس القضية!!

فالذي يتغنى بقيثارة بابل، وبمزمار حوران، وشبّابه بشرّي، فليسكن فيها ويدافع عنها ويحيمها والذي لا يملك موطئ قدم، لا يحق له ان يتغزّل بالتراث ويتغنى بالامجاد...

هل نطلب المستحيل؟

نعم، فمن سار على الدرب وصل، وما ضاع حق وراءه مطالب، ولكن بمصداقية حقه، لا استغلال فيها ولا اطماع، لا انتماءات حزبية او مذهبية او قومية بل بوطنية حقة للوطن الواحد الذي نحمل هويته او جنسيته، نعيش من خيراته سيما وقد ولدنا فيه وهو مسقط رأسنا، فالاجداد يفتخرون بما يحققه الاحفاد...

ان المسيحي المشرقي كلما عاش في كرامته تحت خيمة الحق والقانون والمساواة كلما شعر انه في ارضه ووطنه.

فسنبقى نشهد، وتبقى بلادنا ساحة التقاء الحضارات كما كانت مهدها...

المصادر والمراجع:

- الخوري اسحق أرملة، القصارى في نكبات النصارى، بيروت 1920.
- الأب سهيل قاشا، تاريخ ما أهمله التاريخ، دماء بريئة، بيروت 2002.
- الأب سهيل قاشا، الكنيسة العراقية إزاء الإضطهادات الفارسية، بيروت 2002.
- عبد المسيح قره باش، سيفو، نشره نيافة المطران مار تيوفيلس جورج صليبا، بيروت 2004.
- مكاريوس شاهين، أحداث العام 1860 في بلاد الشام ولبنان، بلا تاريخ.
- المطران بولس دانيال الباخديدي، مذكرات، نشرها الأب سهيل قاشا، بيروت 2000.
- مذكرات الدكتور استارجيان، نشرها الأب سهيل قاشا، بيروت 1998.

الفهرس

مقدمة 5

تمهيد 11

الباب الأول:

المسيحيون المشرقيون إلى أين؟ 17

الباب الثاني:

إجلاء المسيحيين من الشرق الأوسط 41

الباب الثالث:

المسيحيون أعمدة الحضارة الإسلامية 77

المصادر والمراجع 95

الفهرس 96

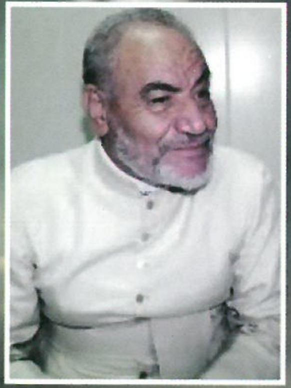

الأب سهيل قاشا

يختصر الاب سهيل قاشا في كتابه هذا بعدين متكاملين، الاول هو خلاصة ابحاثة عن تاريخ المشرق وهي عديدة ومتنوعة وتواكب مختلف الحقبات والمراحل بدءاً من الجذور العريقة في القدم وصولاً الى المسيحية والاسلام ولا سيما الحضور المسيحي في الوسط الاسلامي العربي، والثاني هو خلاصة تجاربه ومعاناته كانسان ولد في العراق وتنقل في ارجاء المشرق واستقر في لبنان وعايش معاناة الناس كرجل دين ومؤرخ يعي الصعوبات والتحديات والاخطار السياسية والاجتماعية والثقافية التي تهدد المشرق والمسيحيين خصوصاً.

جمع الأب سهيل قاشا بين حضور الذاكرة وتجذرها بالانتماء الوطني والالتزام برسالة ومعنى ودور الوجود المسيحي في المشرق، ديار منشأها، والمكان الذي تشهد فيه للحق والمحبة من جهة، وبين تحديات الخارج والداخل التي تهدد الوجود المسيحي في مهده وتخطط لاقتلاعهم بالهجرة والتهجير والتغريب والالغاء من جهة أخرى.

بين الحضور والغياب يكتب الأب سهيل قاشا عن مسيرة المسيحيين المشرقيين مع هويتهم والمستقبل الذي ينتظرهم والاخطار التي تهدد وجودهم، ويتناول ايضاً علاقة المسيحيين بالاسلام ومساهمتهم في بناء الحضارة الاسلامية.